١١٠٨
دار م. النحاس

كبير

1108
HARLEQUIN

دورة الايام

شارلوت لامب

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

دورة الايام

شارلوت لامب

احتلت ايرينا بعد التحاقها بسنتنال، اخبار الصفحة الأولى. كانت فتاة محتشمة خجولة ورائعة الجمال، تدير الرؤوس اينما ذهبت، وتثير إعجاب كل رجل في الصحيفة.

كل رجل ما عدا استيفان سيباستيان. مدير التسويق في الصحيفة وقلب الشركة النابض، وبالرغم من قوة جاذبيته الا ان كل ما كان يريده هو محاربة ايرينا... أترى كان هذا اسلوباً جديداً في الغزل...؟ على كل حال فقد كان نيكولاس كاسبيان وجينا تيريل لا يكفان عن القتال لأجل السيطرة على الصحيفة... ومع هذا كل شخص في سنتنال كان يعلم انهما مغرمان ببعضهما البعض.

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان: ١ ريال - تونس ٢ دينار

عالم باربري وارف

مؤسسة هارلكان وشارلوت لامب مؤلفة أكثر الكتب مبيعاً يرحبان بكم في عالم باربري وارف.

في هذه الرواية الخلابة، ستتعرف إلى عالم الصحافة المثير والمتألق، سترقب العمل الداخلي في غرفة صياغة الأخبار، وتشارك في معرفة الأسرار التي تناقش خلف الأبواب المغلقة وتسافر إلى أكثر المدن إثارة في العالم.

في الكتاب الأول، تتعرف إلى نيكولاس كاسبيان وجينا تيريل واللذين قصة حبهما تتكشف خلال هذه السلسلة، كما انك سترى وقوع هيزل وبييت فان ليدن في الغرام. في معركة التملك يستمر الحب والرغبة، ولكن المعركة الحقيقية لا تبدأ.

لا تدع هذه المغامرات الشاعرية تفوتك... والتي هي أكثر الروايات الشاعرية شعبية في العالم.

شارلوت لامب

شارلون لامب هي إحدى أكثر كتّاب مؤسسة هارلكان شعبية كما أن رواياتها هي أكثر الكتب رواجاً، إن مهنتها غير العادية، وقد صدر لها حتى الآن أكثر من مئة رواية، قد ساهمت في نشر الشاعرية في انحاء العالم.

ولدت في شرق لندن حيث أمضت طفولتها متنقلة بين بيوت اقاربها هرباً من الغارات الجوية اثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد أن عملت سكرتيرة في الإذاعة البريطانية، تزوجت مراسلاً سياسياً يعمل في جريدة التايمس، وهي تقول انها ابتدأت الكتابة بناء على اقتراح منه. «لأنه عمل يمكنني أن أقوم به دون الإضطرار إلى ترك أولادنا الخمسة.» وهي تعيش الآن مع أسرتها في إحدى الجزر البريطانية جزيرة الانسان وهو مكان رائع لمن يكتب القصص الشاعرية مثلها.

١١٠٨ عبير

Abir 1108

دورة الأيام

شارلوت لامب

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

ودعها ديسموند في المطار، وبصفته خبيراً بالأسفار، تأكد قبل كل شيء من انها تحمل كل المستندات المطلوبة في المحفظة الجلدية التي اطمأن إلى وجودها قبل ان يتوجها إلى مطار شال ديغول متمتماً: «جواز السفر، تذكرة الطائرة، الشيكات السياحية، النقود...» وكان يراجع كل ذلك في القائمة التي أصر عليها بأن تكتبها وذلك لكي لا تنسى شيئاً، وكانت تفكر احياناً في أنه يظنها ما زالت تلميذة مدرسة.

بعد ان انتهت من عرض هذه المستندات على الموظف المختص، نظر اليها بإمعان: «انك اكثر شحوباً من المعتاد... هل انت خائفة من السفر؟»

كانت إيرينا، عادة شاحبة اللون، فأجابت وقد بان القلق في عينيها الرماديتين الكبيرتين: «قليلاً، اخشى ان أنسى لغتي الانكليزية حالما أصل إلى لندن، فأقف في المطار معقودة اللسان غبية المظهر.»

فأجاب: «ان روز تتكلم الفرنسية بطلاقة، وهي ستستقبلك خارج دائرة الجمرك مباشرة. حتى ولو نسيت كل كلمة انكليزية، فلا حاجة بك للخوف إذ سرعان ما تتذكرينها.. وفي خلال نصف ساعة ستجدين نفسك تتحدثين بها مع روز دون انتباه.»

نظرت اليه وهي تبتسم بأسى: «انك اكثر ثقة بي مني، يا ديسموند.» لقد اعتادت أن تدعو والدها باسمه الأول، فهي

لم تعرف أنه والدها إلا منذ عهد قريب، خصوصاً وأن اختها روز كانت غالباً ما تدعو والدها باسمه هي أيضاً.

نظر إليها والدها برقة وحنان، كان احياناً، وهو ينظر اليها، تعود به الذكريات إلى طفولته وإلى والدته التي كان يحبها كثيراً، ما أغرب قانون الوراثة، فابنته الثانية روز تشبهه هو... إذ ورثت شعره الأسود وعينيه القاتمتي الزرقة، رغم أن شعره قد اختلط بالبياض واخذ لون عينيه يبهت عاماً بعد عام، ولكن إيرينا كانت نسخة ثانية عن والدته عندما كانت صغيرة السن، بعينيها الكبيرتين المتألقتين وشعرها الطويل الناعم البني اللون، وابتسامتها الحلوة الخجول، ولم يكن التشابه جسمانياً فقط... فهذه الفتاة الصغيرة التي لم يعرف بأبوته لها الا منذ وقت قصير، كانت تسبب له القلق، لأنه تذكر مبلغ ما كانت عليه أمه من هشاشة وضعف بنية.

قال لها يطمئنها: «انك ستستمتعين بوقتك هناك، وستعتني روز بك.» لم يكن بحاجة قط إلى القلق على روز، فهي دوماً قوية واثقة من نفسها، لقد كانت ابنتاه مختلفتين تماماً، وكان هو فخوراً بهما ويحبهما هما الاثنتين، ولكنه كان يعلم أن روز هي الأشبه به.

أجفلت إيرينا قائلة: «آه، انهم يعلنون عن تحرك طائرتي، أين حقيبتي؟ سأتأخر.»

فقال: «اهدإي، فهذا فقط الاعلان الأول، ما زال امامك وقت طويل. فاذهبي مباشرة إلى البوابة التي تطير منها طائرتك.»

أومأت ثم انطلقت في طريقها بعد ان قالت له مودعة: «إلى اللقاء، يا ديسموند، سأراك عندما تعود من فيتنام، ثم انتبه إلى نفسك ولا تغامر.»

فقال ضاحكاً: «ليس في نيتي القيام بأي مغامرة.»

نظرت إليه بارتياب إذ كانت تعلم شهرته بأنه اكثر المراسلين شجاعة واندفاعاً في المغامرات، ولكن ضيق الوقت لم يكن يسمح بالنقاش، وهكذا صافحته بسرعة ثم توارت بين المسافرين الآخرين المتجهين نحو النفق الذي يؤدي إلى حيث تقلع الطائرة.

وعندما حلقت الطائرة في الجو نظرت أسفل لترى باريس وقد غشاها الضباب، شاعرة بعينيها تغرورقان بالدموع، انها ستفتقد والدها، وتملكها شعور بالغ بالوحدة.

لو انه لم يقبل دعوة إلى رحلة في فيتنام يجول فيها شمالاً وجنوباً، ويكتب سلسلة من المقالات تسجل التغيير الذي حدث في الناحيتين منذ انتهاء تلك الحرب الطويلة بينهما، لولا ذلك لما كانت الآن في طريقها إلى لندن، وربما بقيت تعمل في وظيفة صيفية إلى حين ابتداء الدراسة في جامعة السوربون، ولكنه بصفته ذلك المراسل الصحفي المرموق، كان هو الشخص المطلوب لكتابة تلك المقالات حيث ان فيتنام كانت من قبل مستعمرة فرنسية وما زالت موضع اهتمام كبير سياسياً من الشعب الفرنسي حالياً.

كانت روز مقيمة معهما عندما أعلن ديسموند خطته، فسألتها: «ما الذي ستفعلينه يا ايرينا إذا ما غاب ديسموند طوال الصيف؟ هل ستعودين إلى اسبانيا؟»

«لأسبوعين فقط لأرى والدتي وأشقائي، ولكنني بحاجة إلى تحصيل بعض المال أثناء العطلة الصيفية وهذا غير ممكن في المزرعة، انهم بحاجة إلى مساعدة ولا يملكون سوى الكفاف ليعيلوا انفسهم ولهذا لا يمكنني ان اطلب منهم أجراً.»

لم تكن المزرعة، في الحقيقة، اكثر من بيت ذي لون أبيض حائل يحتوي على خمس غرف صغيرة ومخزن قائم على منحدر فوق أرض مجدبة مليئة بالحجارة لا ينبت فيها سوى بعض عرائش العنب، فكانوا لهذا يربون بعض الحيوانات ولكن ليس بأعداد كبيرة، إذ كانت عبارة عن بعض الجياد حيث انه اثناء ثلوج الشتاء يستطيع الحصان أن يذهب إلى حيث لا تتمكن العربات من ذلك، وعلى كل حال فقد كان اشقاؤها يعشقون الجياد، وكل منهم له جواده الخاص، وكان لديهم بعض البقرات التي يبيعون عجولها في المواسم، وبعض الدجاج لبيضها، والتي يبيعونها عندما تتوقف عن البيض، أو يأكلونها إذا كانت اكبر سناً من ان تباع في السوق، وكذلك كان لديهم قطيع صغير من الماعز كانوا يشربون لبنها أو يصنعونه جبناً أو لبناً رائباً، وكذلك قطيع اكبر من الأغنام النحيلة التي كانت تجول بين التلال من مرعى إلى آخر، حيث يوجد العشب.

كان العمل في المزرعة شاقاً مجهداً، فدوماً هنالك ما يجب القيام به، وكان عمل والدتها شاقاً ولكن ليس بمشقة عمل ولديها، رامون الذي كان في الثامنة عشرة الآن ولكنه يبدو اكبر سناً، وميكيل الذي كان في السادسة عشرة، وكانا يبدوان توأمين بشعرهما الأسود وكذلك اعينهما السوداء، وبنيتهما المتينة، ما عدا أن رامون كان أطول بعدة سنتمترات، وكان والدهما يدعوهما مزهواً بالعجلين الصغيرين وذلك حينما كانا يتجادلان ويتقاتلان عندما كانا صغيرين.

كانت الصدمة مرة بالنسبة لايرينا بعد وفاة ذلك الرجل

الذي كانت دوماً تظنه والدها، عندما اخبرتها والدتها بأنها ابنة رجل آخر، ونصف شقيقة فقط لرامون وميكيل.

كانت والدتها غرازيا، قد تعرفت إلى الصحافي الشهير ديسموند إيميري عندما اشتغلت عنده مربية لابنته الصغيرة رزو، وكان ديسموند قد ترمل حديثاً وفي منتهى التعاسة، وكانت غرازيا ذات قلب رحيم فوقعت في غرام تعاسته وحاجته. وهكذا استجابت اليه عندما عرض عليها زواجاً بالسر، وكانت إيرينا هي نتيجة ذلك، رغم ان غرازيا لم تكتشف انها حامل إلا بعد ان اتفقت مع ديسموند على الطلاق، بعد أن اكتشف انه لم يكن يحبها بالفعل وأنه لا يرغب بالإلتزام بزوجة وهو المراسل الصحافي الذي يمضي اغلب اوقاته يجول حول العالم، وهكذا عادت غرازيا إلى بلدها اسبانيا لتتزوج حالما تلقت أوراق الطلاق دون أن تخبر ديسموند عن حملها منه، وكان زوجها هو خطيبها الذي كانت عرفته طوال حياتها والذي كان مزارعاً فقيراً اسمه امبروزيو اوليفيرو وهو رجل بالغ الطيبة ويحبها إلى درجة قبل معها أن تبقي الطفل الذي في بطنها، ومن ثم كان والداً محباً لإيرينا بحيث كانت صدمتها بالغة عندما اخبرتها والدتها بالحقيقة.

أصبحت تحب ديسموند الآن، والدها الحقيقي رغم انها مازالت تحب أمبروزيو معتبرة إياه دوماً والدها، لقد تشاجرت مع والدتها وقاطعتها مدة من الزمن، ولكن هذا قد انتهى، الآن، إذ لا يمكنها ان تلوم احداً لما جرى، كما قررت بعد طول تفكير، فقد اقنعها والدها بأن ما حدث هو أمر شائع في المجتمع ومن صميم الطبيعة البشرية مهما كان ذلك مؤلماً ظالماً.

وغالباً ما كانت تشعر بالذنب وهي تعيش في باريس برفاهية نسبية بينما والدتها وشقيقاها يزاولون عملهم الشاق في المزرعة طوال النهار، فهي مازالت تعيش عالمهم رغم انها تعيش هنا عالماً آخر مع ديسموند... فهي تريد ان تساعدهم بالمال إذ كانت تدرك مبلغ حاجتهم إليه.

وعندما قالت لها روز: «تعالي اعملي في صحيفة سانتنال بصفة مترجمة إذ ان لدينا فرقة كاملة لقراءة الصحف الأجنبية لتختار منها القصص المهمة والغريبة.» عند ذلك قفزت ايرينا من الفرح، سيكون بإمكانها، عند ذاك، ان ترسل نقوداً إلى بيتها كما انها ستتمكن من إعالة نفسها أثناء الصيف.

لقد كانت روز تحدثت إلى دانيال برونى، والذي كانت محرر قسم الشؤون الاجنبية ما سيجعله رئيس ايرينا المباشر، وفي وقت قصير كان كل شيء قد تقرر، فإيرينا ستعمل في الصحيفة وتسكن مع روز في الشقة الفسيحة القائمة على ضفاف النهر التي كان يشاركها السكن فيها دانيال خطيبها حيث سيتم زواجهما قريباً.

أخذت تحدق إلى ذلك البساط المزخرف أسفل والذي كان من صنع كاليه شاعرة بالمتعة لتعاقب الوان المناظر، تحتها... صفرة حقول القمح، خضرة المراعي، الشرائط البيضاء والتي هي الطرق، كانت هذه الضواحي تختلف تماماً عن تلك التي نشأت فيها، ففي اسبانيا تنتهي الأرض اليابسة فجأة ليبدأ البحر، والشمس تتألق على الأمواج الزرقاء، لقد اصبحت لندن قريبة الآن. ووقفت ايرينا لتتجه نحو الحمام، ان عليها ان تغسل وجهها وتجدد زينتها قبل الوصول.

كانت تجلس قرب النافذة وبجانبها كان المقعد خالياً،

بينما المقعد الثالث يحتله رجل طويل القامة بشرته برونزية اللون يشبه سكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وكان قد تجاهلها طوال الطريق، فقد كان مستغرقاً بمطالعة ملف أوراق، وكانت ساقاه ممتدتين تقفل عليها طريق المرور. ووقفت ايرينا بجانبه تنتظر منه ان يتحرك ثم قالت بالفرنسية: «عفواً، يا سيدي.»

اجفلت دهشة وهي ترى الملف يرتخي لحظة، ثم لا يلبث ان يبدأ في الإنزلاق من يده فتتناثر الأوراق في كل ناحية.

اخذ يتمدم بكلمات خشنة غامضة وهو يمسك بالملف بسرعة، بينما انحنت ايرينا على ركبتيها تلملم ما تناثر منها على الأرض، فالتفت هو اليها: «دعيها.» قال ذلك بالاسبانية ما جعلها تجمد مكانها وهي تحملق فيه، لقد كانت تكلمت اليه بالفرنسية وكانت تعرف انها تنطقها بشكل جيد دون لكنة تقريباً، فكيف علم بأنها اسبانية؟ وعندما اخذت تحدق إليه، ألقى عليها نظرة قصيرة وهو مقطب الحاجبين، وكأنه لاحظ اجفالها: «لا تلمسيها من فضلك.» قال ذلك بفرنسية ثقيلة بطيئة، وعند ذلك فهمت ايرينا، ذلك أنه لم يتكهن بأنها اسبانية، بل كان هو نفسه اسبانياً.

أطاعته بصمت، ثم عادت تقف، وبينما كان مشغولاً بلملمة أوراقه، ألقت عليه نظرة فاحصة، مدركة بأنه كان عليها ان تعلم بهويته، ليس فقط لأنه كان طويل القامة أسود الشعر والعينين أسمر البشرة، وإنما أيضاً لذلك الجو المتزن المفكر الذي يحيط به، فالأسبانيون هم عادة، يغلب عليهم الوقار والتحفظ، ويحافظون دوماً على كرامتهم، حتى ان شقيقيها، واللذين لم يصبحا رجالاً بعد، يتصرفان بوقار، فقد كان ذلك من مظاهر الرجولة عندهم.

عاد فوقف ثم خطا مبتعداً مشيراً اليها بأن تمر فأسرعت وقد احمر وجهها وهي تعتذر بالفرنسية... إذ انها لسبب ما، لم تشأ ان تخبره بأنها اسبانية، فقد كانت تشعر بأنه سيفسر ذلك بأنها تحاول الخوض في حديث معه، وأنه سيقابل ذلك بازدراء.

سرحت شعرها واصلحت زينة وجهها، وعندما عادت إلى مقعدها، كان المضيف يعلن بأنهم على وشك الهبوط في مطار هيثرو.

تملك إيرينا شعور بالإثارة والتوتر وهو الذي يعتريها عادة عند الاسفار ومقابلة غرباء، فقد كانت خجولاً قليلة الثقة بنفسها بشكل بالغ.

لكنها كانت متلهفة جداً للقاء شقيقتها مرة أخرى، فهي لم تنفرد بشقيقتها قط من قبل، إذ كان دانيال وديسموند دوماً موجودين معهما، ووجود الرجال يجعل الجو مختلفاً بشكل ما، وتملكها الأمل في أن تزيد معرفتهما، هي وشقيقتها، ببعضهما البعض.

حطت الطائرة في المطار برفق، وأخذت إيرينا تجمع حاجياتها اليدوية، ثم وقفت تمط قامتها لتصل إلى الرف حيث سترتها، وكان عليها ان تقف على اطراف اصابعها، هذا بينما كان جارها الطويل القامة يقف خلفها.

تمتم بشيء من السخرية وهو يمد يديه من فوق رأسها يخرج لها السترة دون صعوبة، تمتم يقول: «إسمحي لي.»

فقالت له بالفرنسية وهي ترفع بصرها إليه: «شكراً يا سيدي.»

أومأ برأسه وقد بان الجمود عليه، ثم استدار يجمع حاجياته، وسار في الممر تاركاً إيرينا تسير في أثره،

ورأت المضيفة تمنحه ابتسامة ناعمة، وتساءلت عما إذا كان رد لها ابتسامتها... هذا إذا كان يستطيع ان يبتسم.

كانت خطواته الواسعة تلتهم المسافة بشكل أسرع مما تستطيعه هي، وهكذا عندما وقفت عند مكان إبراز جواز السفر، كان هو قد غاب عن الأنظار، ولكن عندما وصلت إلى مكان استلام الأمتعة كان هو ينتظر هناك، يروح ويجيء بفروغ صبر وهو ينظر في ساعته، ولكن بعد لحظة كانت حقيبتها قد وصلت فأمسكت بها ثم خرجت من الباب الدوار تنظر إلى الجموع المزدحمة المنتظرة في الخارج، هنا ينبغي ان تكون روز واقفة، فأين هي؟

أخذت ايرينا تنقل نظراتها القلقة بين الوجوه، ولكنها لم تر أثراً لشقيقتها، وبينما كانت تقف عند الباب، سمعت صوتاً مألوفاً بجانبها يقول بفروغ صبر: «أرجو المعذرة... يا آنسة... فأنا مستعجل...»

كادت تتأوه وهي تزيح عن طريقه، متمتمة: «آسفة، يا سيدي.» وفي هذه اللحظة وقعت عيناها على دانيال فاندفعت نحوه وهي تتنهد بارتياح، وتكاد تتعثر بحقيبتها.

قال دانيال بالفرنسية: «ها أنت ذي، إذن.» ثم مد يده يصافحها مرحباً، فهو قريباً سيصبح صهرها زوج شقيقتها.

سألته بعد أن لم تر شقيقتها معه: «أين روز؟»

«كانت أمس في روما، وكان ينبغي ان تصل طائرتها منذ ساعة، ولكن عطلاً طرأ على المحرك، وعندما أدركت انها لن تصل في الوقت المناسب لاستقبالك، اتصلت بي هاتفياً خوفاً من ان يتملكك الذعر وانت تجدين نفسك في بلد غريب

لا يستقبلك فيه احد تعرفينه.» ونظر اليها ضاحكاً. «ولكن كان بإمكانك طبعاً ان تتصرفي، فتستأجري تاكسي، ولكن شقيقتك الكبرى لا تصدق ذلك.»

ابتسمت له ايرينا، وهي تفكر في شقيقتها وكم هي محظوظة إذ يكون لها مثل هذا الرجل، فقد كان دانيال أشبه بنجم سينمائي بوسامته وجاذبيته، وكانت تشعر نحوه بشيء من الهيبة لذكائه وروح الفكاهة التي لديه، هذا إلى حيويته الطاغية، وكانت روز تتصرف معه بشكل طبيعي، ولكن روز كانت قوية الشخصية هي أيضاً، ولا شك انهم سيكونان زوجين مذهلين.

فقالت له بخجل: «من الشهامة ان تكلف نفسك المجيء لاستقبالي، فقد كنت مسرورة جداً لرؤية وجه مألوف لديّ، ولكن كان بإمكاني طبعاً ان أتدبر أمري لو لم اجد احداً في استقبالي، فعندما كنت لم ابلغ الثامنة عشرة بعد، قطعت اسبانيا من طرف لآخر في القطار ومن ثم بالطائرة إلى باريس.»

قال لها مازحاً: «ولكن الجزء الصعب من رحلتك هو من محطة القطار في باريس إلى بيتك، أليس كذلك؟» وانحنى يحمل حقيبتها مشيراً إليها بالسير معه نحو المخرج إلى الشارع.

قالت له: «هذا صحيح، فالزحام في شوارع باريس رديء تماماً، ألن ننتظر روز؟»

«ان طائرتها لن تصل قبل ساعات، كما اخبرني موظف الاستعلامات، ولا نستطيع انتظار كل هذا الوقت، لا تقلقي، فروز لن تمانع بذلك، وعندما تصل ستستقل سيارة أجرة وتلحق بنا إلى الشقة.»

حيث تقف سيارات الأجرة، لم يكن هناك سوى رجل واحد ينتظر، ورأت إيرينا تلك الكتفين العريضتين وذلك الظهر الطويل المستقيم، وغاص قلبها بين جنبيها، ها هو ذا مرة أخرى.

قال دانيال ببشاشة: «إذا لم تكن الطرق مزدحمة، فسنصل إلى شقتنا بظرف ساعة، ولكن ذلك قد يستغرق ساعتين إذا كانت مزدحمة، هل انت متعبة يا صغيرة؟ انك شديدة الشحوب.»

«بل أنا بخير.»

قالت ذلك وسيارة أجرة تقترب فيخطو ذلك الرجل نحوها ليأخذها، نظر اليه دانيال لحظة ما لبث ان هتف بعدها: «استبيان.»

فالتفت الرجل بنفور واضح، ودون ان يظهر أية دهشة ما جعل إيرينا تدرك انه كان قد رأى دانيال منذ فترة قال له: «مرحباً دانيال.»

فقال دانيال: «لم الحظك من قبل.»

هز الرجل كتفيه: «لا بأس، فلديك ما يشغلك.» وتحولت عيناه لحظة خاطفة نحو ايرينا، فبدت اسنان دانيال الناصعة البياض بابتسامة واسعة: «كنت فعلاً كذلك.» ونقل نظراته بينهما: «ايرينا، اقدم اليك استيبان سيباستيان. مدير التسويق في سنتنال، وهو أيضاً من أهل بلدك... ان ايرينا يا استيبان، قادمة للعمل في قسم الترجمة لفترة الصيف. ومن غرابة الصدف انها اسبانية هي أيضاً.»

أدى استيبان لها شبه انحناءة وهو يقول بالانكليزية بأدب بالغ البرودة: «تشرفنا.»

فتمتمت بكلام غير مفهوم دون أن تقابل عينيه تماماً.

وضع سائق سيارة الأجرة حقيبة استيبان داخل

السيارة، ثم صعد إلى خلف عجلة القيادة وهو ينظر اليهما قائلاً: «حسناً، من منكم سيأتي معي؟»

فصعد استيبان إلى العربة، ثم نظر خلفه يسألهما باقتضاب: «اتحبان أن تشاركاني السيارة؟»

ولحسن الحظ، كانت سيارة أجرة أخرى تقترب منهما هذه الاثناء، فرمق دانيال ايرينا بنظرة سريعة رأى فيه التعبير الذي بدا على وجهها ما جعله يجيبه قائلاً: «شكراً، يا استيبان، ولكننا سنأخذ السيارة الثانية، إذ لم نجد فرصة نتحدث فيها بعد.»

قال استيبان لاوياً شفتيه: «طبعاً، إلى اللقاء في المكتب.» وانطلقت به السيارة فتنهدت ايرينا بارتياح، وبينما كانت تصعد إلى المقعد الخلفي، كان دانيال يناول سائق السيارة حقيبتها.

قال لها وهو يجلس بجانبها: «هل افهم من تصرفك انك لم تنسجمي مع استيبان؟»

فقالت متلعثمة: «انه غير ودود تماماً.» لم تشأ ان تخبر دانيال عن تلك الحادثة السخيفة في الطائرة، أو انها تشعر بأن استيبان شعر بالنفور منها، كانت بعض الأشياء من الغموض بحيث لا يستطيع المرء شرحها، وإذ كان دانيال رجلاً منطقياً واقعياً، فهو سيعتبر مشاعرها مجرد تخيلات.

قال لها دانيال رافعاً حاجبيه: «لا أرى لديك سوى حقيبة واحدة، ألا تحتاجين إلى اكثر من حقيبة ملابس إذا كنت ستمضين هنا عدة أسابيع؟ انني اعلم ان روز كانت ستحتاج إلى سيارة فان محملة بالملابس لو كانت مكانك.»

قالت له وقد احمر وجهها خجلاً: «لا املك ملابس غير هذه.»

نظر دانيال اليها غير مصدق: «يا له من اعتراف من امرأة تعيش في باريس، حسناً، سنرى ما يمكن أن نفعله بهذا الشأن اثناء وجودك هنا، ان هذا سيدفع روز إلى اخذك للتسوق، فلندن هي أيضاً مركز للموضة، خصوصاً بالنسبة للملابس الانكليزية التقليدية.»

بدا الذعر على ايرينا، وتمتمت بحرج: «أرجوك ألا تذكر ذلك لروز، يا دانيال، فأنا لا استطيع انفاق كل نقودي على الملابس، وعلى كل حال، فان لديّ كل ما أحتاجه.»

نظر إلى الطقم الفيروزي اللون الذي ترتديه، وقد بدا الاعجاب في عينيه، ثم قال: «ثوبك هذا جميل للغاية، من أين اشتريته؟»

«لقد صنعته بنفسي.»

«أحقاً؟» وعاد يتأملها من جديد بإعجاب واضح: «انك فتاة ماهرة تماماً.»

فاحمر وجهها: «انني اخيط اغلب ملابسي بنفسي على آلة خياطة اشتريتها مستعملة من سوق البضائع المستعملة.» وكانت قد اشترت القماش من التنزيلات بنصف الثمن ووضعت تصميمه بنفسها، أيضاً، فكان بهذا أرخص كثيراً من ثوب جاهز تشتريه من المتجر.

كان زحام السير خفيفاً هذا النهار، وهكذا استغرق وصولهما إلى الشقة ساعة فقط، والتي كانت في بناية جديدة قريبة من نهر التايمس، وعلى بعد مسافة قريبة من مجمع باربري وارف. أشار دانيال إلى المجمع هذا يريها إياه فأخذت تحدق إليه وقد اتسعت عيناها.

كان زجاج النوافذ المغشى بالسواد يلتمع في أشعة

الشمس، بينما المبنى المثمن الاضلاع ينعكس شكله في مياه النهر بجانبه، كان ثمة شيء وحشي في بنائه، لمحة من شكل الحصن، أو شيء يتوارى خلف جدران عالية، ما بعث قشعريرة في جسم ايرينا.

ألقى دانيال عليها نظرة جانبية ماكرة، وهو يقول: «لا تدعي الذعر يتملكك لمظهر المجمع هذا، إذ سرعان ما ستشعرين وكأنك في بيتك.»

فقالت بصوت ضعيف: «هذا ما أرجوه.» أي فرق هناك سواء اعجبها العمل هنا أم لم يعجبها؟ كانت بحاجة إلى النقود ومن حسن حظها ان وجدت هذا العمل.

بعد ذلك بدقائق، انزلتهما السيارة عند باب المبنى الحديث والذي كان بني حوالي نفس وقت بناء باربري وارف. واستقلا المصعد إلى الطابق الثالث، فتح هو الباب الأمامي ووقف جانباً لكي يدعها تدخل أولاً، ومن ثم تبعها حاملاً الحقيبة.

قال لها: «فلنذهب أولاً ونرى الغرفة التي ستقيمين فيها.» وسار امامها في الممر الضيق، يريها كل غرفة كانا يمران بها، كانت غرفتها في نهاية الممر، ففتح بابها لتقف هي على العتبة تحدق حولها، وقد تملكها السرور لرؤية هذه الغرفة الفسيحة المضيئة، والتي كانت مؤثثة بشكل بسيط وعصري.

كانت الجدران مدهونة باللون الأبيض، والسجادة والستائر بلون أشعة الشمس، بينما الاثاث كان من خشب الصنوبر ذهبي اللون، وكانت هناك نوافذ بالغة الإتساع كانت تطل على منظر النهر، وكان ثمة خزانة للثياب محفورة

في الجدار ذات باب انزلاقي وهو شيء لم تره ايرينا قط من قبل، كما كان هناك مقعد بذراعين يواجهه جهاز هاتفي وصف من الكتب على رف بجانب السرير.

قالت ايرينا لاهثة: «انها رائعة.»

فابتسم دانيال: «أنا مسرور لأنها اعجبتك ساتركك الآن لتنظيم امتعتك والتعود على بيتك الجديد، فإذا احتجتني فسأكون في المطبخ، ان روز لن تتأخر. آه، بالمناسبة اننا سنتناول عشاءنا في الخارج هذه الليلة، في مطعم بيير قرب باربري وارف، انه سيعجبك جداً.» سكت لحظة ثم عاد يقول برقة: «هنالك شيء آخر، انني أعرف ان من الأسهل علينا التحدث باللغة الفرنسية، ولكن من الآن فصاعداً عليك ان تتدربي على التحدث باللغة الانكليزية، كما تعلمين، فهذه لندن، وهذا هو السبب في وجودك هنا، لكي تحسني لغتك الانكليزية.»

احمر وجهها وأومأت وهي تقول بالانكليزية بحذر: «اعلم ذلك، وسأتكلم الانكليزية من الآن فصاعداً.»

«هذا حسن.» ابتسم لها، ثم اغلق الباب تاركاً إياها وحدها.

تنهدت بعمق ثم اتجهت نحو النافذة تنظر منها وهي لا تكاد تصدق ما ترى... كان نهر التايمس يجري هادئاً وامامها كان يقوم مجموعة من مبانٍ مرتفعة ذات سطوح رمادية مدببة كانت تمثل ناحية من عظمة لندن، وبدا لها ذلك من الغرابة والبعد عن المألوف بحيث تمنت لو تعود إلى باريس، انها لن تنسجم أبداً مع مكان كهذا.

في هذه اللحظة كانت جينا تيريل تقف عند نافذة مكتبها الكائن في مجمع باربري وارف، تنظر إلى أشعة شمس

الأصيل المنعكسة على مياه النهر، هي أيضاً، بينما كانت تتحدث من فوق كتفها.

«نعم، لماذا لا تدعينها إلى حفلة زفافك يا هيزل؟ ان هذا سيسر روز، وانا واثقة من انك ستحبين ايرينا، فهي حلوة خجول...»

قالت هيزل ضاحكة: «انها لا تشبه روز إذن؟»

فضحكت جينا: «لا اظن روز يعجبها ان توصف بأنها حلوة خجول، على كل حال، كلا، لا يمكنك أبداً ان تتكهني بأنهما من والد واحد، حتى ان ايرينا لا تشبه والدها، واظنها تشبه والدتها.»

«أتريد أن تصبح مراسلة هي أيضاً؟»

كانت هيزل تتكلم بينما تنظم الملفات في اماكنها، فهزت جينا كتفيها، قائلة: «ليس لديّ فكرة عن ذلك، ولكنني لا اظنها من ذلك النوع، انها بالغة الحساسية، كما تبدو، ولكنها ماهرة في اللغات مثل روز وديسموند، وهذا ما تدرسه في جامعة السوربون في باريس، ولكنها ستسر كثيراً بحضور عرس انكليزي، ومن اللطف البالغ ان تفكري في ذلك، يا هيزل.»

«حسناً، اظنها ستشعر بالإهمال إذا انا لم أدعها، حيث أن درز ودانيال سيكونان موجودين.»

«ألم ينته صنع ثوب الزفاف بعد؟»

«القياس الأخير له سيكون الاسبوع القادم.» وفي تلك اللحظة، تناهى إلى سمعهما صوت باب يصفق، فرفعت جينا رأسها بحدة، ثم تبادلت وهيزل النظرات.

«لقد عاد.»

كان نيكولاس كاسبيان مشتركاً في اجتماع طويل مع واحد من رؤساء اتحاد الطابعين، ومن الضجة التي احدثتها عودته كان ظاهراً انه في مزاج سيء، وان لم يكن هذا غريباً عنه، فقد كان مستغرقاً في المشاكل مع اكثر الاتحادات البريطانية وذلك منذ استلامه صحيفة سنتنال. من ناحية لأنه كان يحاول تحديد ساعات العمل والأجور، وذلك لكي تسير على نفس الخط المعمول به في صحفه الأخرى في أوروبا، ومن ناحية أخرى لأن العمال الانكليز لم يكونوا يثقون بتصرفات اصحاب العمل، فهم يناضلون ضدهم كلما وأينما استطاعوا ذلك.

أسرعت جينا نحو مكتبها لتجمع حاجياتها، فقد كان المكتب للسيد جورج تيريل جد زوجها جايمس تيريل والذي كان توفي منذ ست سنوات، وعندما انتقلت صحيفة سنتنال من شارع فليت ستريت إلى مجمع باربري وارف، كان هذا المكتب الأثري المكسو سطحه بالجلد في مكتب السير جورج، ولكن عندما مات واستلم نيكولاس كاسبيان الصحيفة، استلم أيضاً مكتب السير جورج، وشعرت جينا بالمرارة لجلوس نيكولاس خلف ذلك المكتب، فقد كانت اعتبرت نيكولاس كاسبيان مسؤولاً عن وفاة الرجل العجوز، إذ انه لو لم يحاول السيطرة الكاملة على الصحيفة، ربما كان السير جورج مازال على قيد الحياة، وكانت رؤيتها له خلف ذلك المكتب دليلاً ساطعاً على انتصاره، وعلى انهزام الرجل العجوز وموته.

على كل حال، عندما اقنعها نيكولاس بالبقاء في الصحيفة، نقل هذا المكتب إلى غرفة مكتبها... وكانت هذه لفتة ذكية منه خففت من قلة ثقتها به، فقد كان نيكولاس

يعرف شعورها، وكان هذا شيئاً يثير ضيقها لأنها لم تكن تريد ان يعرف نيكولاس كاسبيان الكثير عنها.

قالت بصوت أجش وقد شحب وجهها: «انني ذاهبة.» لقد كانت تتجنب مقابلة نيكولاس قدر بإمكانها وكان ذلك سهلاً عليها اكثر أيام السنة، لأنه كان يمضي أياماً طويلة خارج لندن فقد كانت مؤسسته الدولية للنشر تملك صحفاً في كل عاصمة أوروبية، وعندما يكون في الخارج في إحدى صحفه، كانت تمضي أسابيع دون أن تراه، ولكنه الآن في لندن منذ اسبوعين ما جعل التوتر يتملكها فقد كان له تأثير مدمر على أعصابها، كما أنها حالياً، كانت تشعر بتعب بالغ ما يجعلها غير قادرة على مواجهته وهو في إحدى نوبات غضبه هذه.

لكن وقت الهرب قد فاتها، فما أن كانت على وشك الخروج، حتى دخل نيكولاس كاسبيان إلى المكتب، فشمل جينا بنظرة شاملة، كان وجهه تكسوه البرودة، ولكن كان في عينيه سؤال عرفته جينا، فصرفت بأسنانها.

قال ساخراً: «أراك ترقبين الساعة؟»

«لديّ موعد هذا المساء.»

فتوتر فمه: «مع من؟ فيليب؟»

«نعم.» تمتمت تجيب بذلك بينما اهدابها مسبلة تخفي عينيها الخضراوين اللوزتيي الشكل، حاولت ان لا تنظر إليه، ولكن صورته دوماً لا تبارح ذهنها، ولكن عينيها كانتا ترمقانه بسرعة، تارة ثم تبتعدان تارة أخرى.

كان نيكولاس في منتصف الثلاثينات من عمره، قوي البنية، ذا جسم رشيق مرن.

لم تكن جينا قد عرفت شيئاً بعد عنه أو عن أسرته، حتى ولا مسقط رأسه أو مكان نشأته، لقد حاولت صحف أخرى ان تجري تحقيقاً عن حياته، ولكنها لم تخرج بسوى شيء قليل جداً، رغم انها جينا قد قرأت مرة أن والده زاكاري كاسبيان، كان ميتاً، لم يكن نيكولاس يتحدث قط عن نفسه أو ماضيه، ومن كان يلقي عليه مثل هذه الاسئلة كان يقابل بالبرودة والصمت.

كان ثمة شيء وحيد واضح، وهو ان لون بشرته كانت تنبيء بأنه من عنصر لاتيني، فقد كانت سمراء اللون، ورغم ذلك كان من المدهش أن عينيه كانتا ذات لون أزرق فاتح، وكانتا في تلك اللحظة، تلتمعان غضباً.

«حسناً، أريد كلمة معك قبل خروجك... فهل لك ان تدخلي إلى مكتبي؟» قال ذلك بصوت أجش، ثم نظر إلى هيزل: «هل تلك الرسائل جاهزة لتوقيعي؟»

«نعم، جميعها.» اجابته بذلك بصوتها الهادىء كالعادة، حاملة ملفاً يحتوي على رسائل سبق وطبعتها.

تناولها نيكولاس بصبر فارغ ثم استدار عائداً إلى مكتبه، نظرت جينا وهيزل إلى بعضهما البعض بعبوس، ثم تبعته جينا مغلقة الباب خلفها.

كان نيكولاس جالساً خلف مكتبه يوقع الرسائل بحركات سريعة من قلمه الذهبي.

سألته جينا وهي تقف في الناحية الأخرى من الغرفة، قرب الباب: «انني مستعجلة فهل الأمر هام؟»

لكن رأسه لم يرتفع، ولا كف قلمه عن الحركة، وإنما قال ببرودة: «نعم، لن أتأخر أكثر من لحظة، أريد ان أنهي

التوقيع على هذه لكي نستطيع إرسالها ببريد هذا النهار.»

أخذت جينا تنظر حولها إلى الجدران المبطنة بخشب السنديان المذهب وأشعة شمس الأصيل تومض فوقه، وإذا بها تلحظ فجأة أن صورة والد السير جورج تيريل قد نقلت من مكانها المعتاد بين النافذتين ووضع مكانها صورة رجل قصير القامة إلى حد بدا معه وكأنه كان قزماً، أو ربما كان ذلك نتيجة الوضع الذي كان جالساً فيه على الكرسي، محني الكتفين، بينما عيناه شاردتان في مكان بعيد، كان أسمر البشرة والعينين، رمادي الشعر خفيفة، وقد سرح إلى الوراء.

كان نيكولاس قد انتهى من توقيع رسائله ورفع عينيه ينظر اليها وهي تحدق إلى اللوحة، فقال باختصار: «انه والدي.»

«آه.» وألقت جينا عليه نظرة سريعة، إذن فهذا هو زاكاري كاسبيان؟ ان نيكولاس لا يشبهه، وعادت تنظر إلى اللوحة، فقال نيكولاس بصوت كئيب: «انها افضل صورة له، وقد علقتها والدتي في منزلها في سان فرنسيسكو سنوات طويلة، ولم اكن اظن على الاطلاق أن من الممكن ان تنفصل عنها، ولكنها قد أرسلتها إليّ لتوها.»

«هل تعيش والدتك في اميركا؟» ولم تكن جينا تعرف هذا، حتى انها لم تكن تعرف ما إذا كانت والدته ماتزال حية.

فأومأ برأسه وهو ينقر على سطح المكتب بأصابعه كعادته حين يكون غاضباً أو فارغ الصبر، وتابع يقول: «هذا ما أريد ان اتحدث إليك عنه، انني أفكر في اتخاذ منحى جديد في الولايات المتحدة، وذلك بالذهاب إلى

الساحل الغربي لأرى الوضع هناك، انني سآخذ معي هيئة من المديرين لدراسة الوضع ورؤية ان كان ثمة امكانيات جيدة أم لا، وأريدك ان تكوني ضمن الهيئة تلك.

شعرت جينا بالتوتر يتملكها، فقالت ببطء وقد بدا الحذر في عينيها كقطة خائفة: «اتريدني ان اذهب إلى كاليفورنيا؟ ليس من ورائي فائدة بالنسبة إلى دراسة الامكانيات هناك، فأنا لست خبيرة بمثل هذا الأمر.»

«لكنك دوماً تصرين على ان تكوني شريكة في السلطة، وأن تعرفي كل ما يدور، ولماذا تصدر القرارات، لن يكون بإمكانك المشاركة في الإدارة إذا كنت لا تغادرين لندن، أو تعرفين ما يحصل في بقية المؤسسة.»

فقالت بحدة: «ان مؤسسة كاسبيان لا علاقة لها بي. انني من مؤسسة تيريل.»

فتمتم غاضباً: «انك تزوجت من آل تيريل، هذا صحيح، ولكنه لا يجعلك منهم.»

حدقت إليه باستياء ومرارة، وقد التهبت عيناها، كان هذا صحيحاً بالطبع، ولكنها مع ذلك، تشعر بأنها من أسرة تيريل، فقد كانت تعلم ان السير جورج كان يعتبرها من أفراد أسرته... وكان هذا هو السبب في انه أورثها أسهمه وأوصاها بأن تتابع مسيرته بعد وفاته.

«لقد أصبحت من أسرة تيريل بعد زواجي من جايمس.»

ألقت إليه بهذا الجواب، فهب واقفاً، واستقام جسمها واستيقظت أحاسيسها، ربما كانت تكره وتحتقر نيكولاس كاسبيان ولكن وجودهما معاً في نفس الغرفة كان له وقع الكارثة عليها حتى انها لم تعد تسيطر على مشاعرها.

فتمتمت تقول بصوت أبح وهي تجاهد في سبيل التظاهر بالهدوء: «انني لا أريد الحديث عن ذلك، فكل ما يهمني هو ما يحدث في سنتنال، فلا تحاول اشراكي في اعمال مؤسسة كاسبيان.»

استدارت نحو الباب وهو لا تكاد ترى ما امامها، ولكن نيكولاس كان قد اصبح خلفها يمسك بذراعها بقبضة من حديد.

«لا تتركيني بهذا الشكل، يا جينا.»

لقد شعرت بخوف حقيقي هذه المرة، ولكنها جاهدت في سبيل اخفائه وذلك بقولها بحدة: «كم مرة قلت لك انني أكره ان تلمسني؟»

«لقد وصلت إلى حد لم أعد أبالي معه.» تمتم بذلك وهو يحدق في وجهها بشكل اخذت معه ترتجف وهي تبادله التحديق، متنفسة بصعوبة... وعند ذلك تصاعد رنين الهاتف الموضوع على المكتب فأجفلت جينا بعنف.

وقف نيكولاس لحظة طويلة لا يحول عينيه عن وجهها الشاحب، ثم ما لبث ان ترك ذراعها واستدار عائداً إلى المكتب حيث انتزع السماعة من مكانها.

ثم سأل بحدة: «نعم؟» ثم اخذ يستمع، وظهره إلى جينا التي كانت من الارتجاف بحيث لم تستطع الخروج من الغرفة، فقد كان قلبها يخفق بعنف ما جعلها تشعر بالغثيان كما اصبحت ساقاها برخاوة الماء.

«ماذا؟» قال نيكولاس ذلك بخشونة، فنظرت هي إليه كما التفت هو يحدق فيها أثناء استماعه إلى ما كان يقال له خلال الهاتف.

تملك جينا حدس جعلها تبقى، محدقة في وجه نيكولاس

الخشن، كان الشحوب يكسو وجهه وقد قطب حاجبيه، واظلمت عيناه، ما الذي حدث؟ أهو خبر سيء؟ ولكن ما هو نوع ذلك الخبر؟ أتراه متعلقاً بالعمل، أم هو شخصي؟

سأل نيكولاس: «هل أنت واثق من انها موجودة على متنها؟» وعندما سمع الجواب قطب جبينه: «نعم، فهمت، كلا، سأتحدث إليها بنفسي، فقط إبق هناك، واعلمني على الفور بكل ما يحصل.»

وضع السماعة، ثم استدار ينظر إلى جينا، ولكنه لم يقل شيئاً للحظة طويلة وقد عض شفته وكأنه يفكر بما عليه أن يقول، أو كيف يقوله.

سألته جينا وقد تملكها الإنزعاج والحيرة: «ماذا حدث؟»

تنهد نيكولاس: «انها روز.»

فشهقت جينا: «روز؟ لقد عادت من روما منذ ساعات... وكانت تستقبل ايرينا في المطار...»

فقاطعها بهدوء: «لقد تأخرت طائرة روما، فقد كانوا تلقوا إنذاراً بوجود قنبلة فيها، فبقوا ساعات يفتشون الطائرة ولكنهم لم يجدوا شيئاً، وهكذا انطلقت الطائرة متأخرة أربع ساعات.»

كانت جينا ترتجف وقد شحب وجهها، واخذت مخيلتها تقفز مذعورة إلى النتائج، متصورة ما لم يكن بإمكانها احتماله: «آه، كلا... كلا... ليست روز...»

فقال نيكولاس بسرعة: «انها لم تمت، يا جينا، فلم تكن هناك قنبلة.»

تنهدت بارتياح، ثم عادت عيناها الخضراوان تتسمران على وجهه بعنف: «ماذا... إذن؟»

فتنهد قائلاً: «لقد كان التحذير باللغة الانكليزية ولا بد ان عامل التلغراف لم يفهمه جيداً، لم يكن هناك قنبلة، وإنما إرهابيون داخل الطائرة.»

«إرهابيون!» عضت جينا شفتها بعنف شعرت معه بطعم الدم في فمها.

«لقد اختطفوا الطائرة وهم يرغمون الطيار على التوجه الآن نحو قبرص.»

كان الذي يحدثني بن وينتر احد مراسلينا وكان وصل لتوه إلى مطار نيقوسيا من لندن، لقضاء عطلة أسبوعين، وكان يقف في الصف ليوقع على استئجار سيارة كان قد حجزها، عندما امتلأ المكان فجأة بالجنود ورجال الشرطة آمرين الجميع بالخروج وترك المنطقة في الحال. وطبعاً، رفض بن الخروج مخرجاً بطاقته كصحافي، وهكذا حصل على القصة قبل أي شخص آخر، قال ان من الصعب ان يعرف بالضبط من هم أو ما الذي يحدث، ولكن يبدو ان هناك اثنين أو ثلاثة من الإرهابيين، وعندما اكتشف أن الطائرة قادمة من روما إلى لندن، تذكر ان دانييل كان أخبره بأن روز قادمة من روما اليوم.»

الفصل الثاني

شعرت جينا بارتخاء في ساقيها، فهبطت جالسة على أقرب مقعد وهي تشبك يديها تمنعهما من الإرتجاف: «ولكن... ولكن... لماذا لم نسمع بالخبر قبل الآن لو كانت الطائرة قد اختطفت منذ عدة ساعات؟ لماذا لم تذع وكالات الأخبار ذلك؟»

«كان هناك تعتيم اعلامي من ناحية قبرص، كما قال بن، فلم يذيعوا بياناً بذلك قبل ان يتأكدوا من وجود إرهابيين على متن الطائرة، انه يظنهم لم يعلموا بالضبط، بعد ما يحدث، ولهذا هم لا يتحدثون، فهو لم يحصل إلا على هذه المعلومات وذلك بالصدفة، لأنه كان موجوداً هناك، وهو يظن انهم سيرفضون إعطاءهم الإذن بالهبوط.»

سحبت جينا نفساً مرتجفاً: «ولكن... هل سيكون في الطائرة ما يكفي من الوقود لكي تذهب إلى مكان آخر؟ ماذا لو كان الإرهابيون مجرمين؟ آه... روز...»

قال لها وهو ينظر اليها مقطباً جبينه: «لا تدعي مخيلتك تذهب بك بعيداً، إبقي هادئة إلى ان نحصل على صورة واضحة لما وراء هذا كله، يا جينا.»

انفجرت تقول بغضب عارم: «ما اسهل ان تقول ذلك، فروز ليست صديقة عمرك، كما أن الأمر لا يتعلق بك مباشرة.»

فقال بحدة: «انني أعرف روز منذ سنوات، اتظنين انني لست قلقاً إلى أقصى حد على سلامتها؟»

أدار ظهره اليها عائداً إلى حيث كان يجلس خلف مكتبه ثم

رفع سماعة الهاتف الداخلي وهو يقول وقد توتر فمه: «أرى ان اتحدث إلى دانيال، وان كنت لا احب إخباره بالأمر، من حسن الحظ انه متدرب على معالجة الأزمات، وهو الآن سيكون بحاجة إلى كل ما اكتسبه من ذلك التدريب، لكي يعالج هذا الأمر.»

أخذت جينا تحدق في يديها المتوترين في حجرها وهي تحركهما وتلويهما، سيكون لهذا الخبر وقع عنيف على دانيال، بالرغم من تدريبه، لقد أمضى سنوات كان فيها مراسلاً خشناً مقاوماً للصعاب والأخطار والكوارث، ولكن هذا كان في الماضي، فهو قد تغير الآن منذ أن عقد خطوبته على روز، فالسعادة قد جعلت منه رجلاً آخر، رجلاً دافئاً ودوداً سهل المعشر، فلو حدث شيء لروز لمزقه ذلك أشتاتاً.

كان نيكولاس يتكلم في الهاتف باختصار، فأخذت تستمع مقطبة جبينها إزاء لهجته، لا يمكن أن يكون حديثه موجهاً إلى دانيال. «أين، آه، فهمت كلا، سأتصل به إلى بيته.» وضع سماعة الهاتف ثم نظر إليها: «لقد كانت روز اتصلت هاتفياً بدانيال لتقول انها لم تستطع ان تستقبل ايرينا في المطار لأن الطائرة قد تأخرت، ولهذا ذهب دانيال إلى مطار هيثرو منذ عدة ساعات.» والتقط دفتراً كبيراً ذا غلاف من الجلد اخذ يقلب صفحاته وهو يقول: «لا بد ان لديّ رقم هاتف بيت دانيال، هنا.»

عند ذلك ذكرت له الرقم مستمداً من ذاكرتها، فوضع الدفتر جانباً وهو يقول: «شكراً لك.» وابتدأ يدير الرقم وهو يقول: «لا بد انه عاد إلى بيته الآن، ولكنني لا اتصور انه قد سمع بالخبر.»

تصاعد رنين هاتف ثان على المكتب، فرفع نيكولاس

السماعة بينما مايزال ينتظر من يجيبه من شقة دانيال: «نعم، من هناك؟» عند ذلك قال بفروغ صبر. «نعم، مرحباً يا فابيان... نعم اعرف هذا، لقد سمعنا به، فقد اتصل بنا بن قبل ان يتصل بقسم الشؤون الأجنبية انني احاول الاتصال بدانيال بنفسي الآن، دع اخباره بالأمر لي انا، نعم، يمكنه بن أن يعالج الموضوع حالياً، ولكن لا ترسل أحداً إلى هناك.» وعبس لحظة. «لا جواب من شقة دانيال، ربما لم يعد مباشرة إلى بيته... وربما ما زال في المطار ينتظر روز، اسمع، سأتابع الاتصال به، فهو سيرغب في الذهاب إلى هناك حال سماعه بالخبر، وأنا سأتأكد من ان طائرتي الخاصة جاهزة لكي تطير به إلى قبرص، فهذا سيكون أسهل. فهم اغلقوا مطار نيقوسيا امام الطائرات وسيكون عليهم ان يجدوا امكاناً آخر في الجزيرة لتهبط فيه، وسأرسل معه مراسلاً آخر، إذ لا يمكننا ان نطلب من دانيال ان يغطي هذا الحدث كما انه ليس من العدل ان نطلب من بن ان يعمل بينما هو في إجازة، كلا، لا يهمني من يذهب فاختر شخصاً بنفسك، وسأتصل بك عندما اعثر على دانيال.»

أنهى مخابرة فابيان، انتظر لحظة أخرى انهى بعدها اتصاله بمنزل دانيال وهو يقول لها: «أين يمكن ان يكون دانيال؟»

فقالت جينا: «ربما سمع بالخبر، وهو في طريقه إلى هنا.»

لكن نيكولاس لوى شفتيه: «حسب معرفتي بدانيال، فهو في طريقه عائداً إلى المطار لكي يستقل أول طائرة ذاهبة إلى قبرص، كلا، لا يمكن أن يكون قد سمع... ولكن أين هو؟»

قالت جينا وهي تتنهد: «ربما اخذ ايرينا في جولة يريها معالم المدينة.»

كانت روز تفكر في دانيال، هي أيضاً، وكانت صورته تملأ خيالها، ولهذا كان عليها ان تعض شفتها لتخنق آهة عذاب، هل ستراه مرة أخرى؟ سنوات كثيرة ضيعتها في المشاحنات معه، مقاومة مشاعرها نحوه، وقد ينتهي كله الآن.

كانت في ضيق شديد وهي تربض في مقعدها في الطائرة ويداها معقودتان خلف رأسها مبقيتهما بهذا الشكل طالما كان الإرهابيان المسلحان بالمسدسات والقنابل اليدوية واقفين في مقدمة الطائرة يراقبان بقية المسافرين بأعين يقظى وثابة، كيف أدخلا اسلحتهم هذه إلى الطائرة؟ أخذت تسأل نفسها ذلك وهي تفكر في القصة التي أدلى بها المسؤولون في روما، وهي أن عطلاً في المحرك قد سبب هذا التأخر الطويل للطائرة عن السفر، كما اخبروهم... ولكن لم يتضح الأمر إلا الآن، وهو أنه كان هناك نوع من الإنذار، ما جعلهم يفتشون الطائرة... فكيف استطاع هؤلاء الرجال تهريب اسلحتهم إلى الطائرة؟

كانت تحتل المقعد الذي بجانبها امرأة متوسطة العمر، وكانت تبكي بصمت وعيناها مغمضتان، لم تجرؤ روز على الكلام معها، فقد منعوا من احداث أي صوت، انها لا تستطيع وضع ذراعها حولها أو محاولة التخفيف عنها، إذ انها إذا حاولت انزال يديها فسيطلقون عليها الرصاص.

كانت على علم بكل الاحتمالات، فقد كان ممكناً جداً أن يكون هذا آخر ايامها على الأرض، فقد كان الرجال الثلاثة الذين احتلوا الطائرة، مستعدين لكل شيء، فإذا نطق أي شخص بكلمة لا تعجبهم أو تحرك قليلاً، فقد يعني هذا الموت لكل من في الطائرة، فقد كان الجو مشحوناً بالتوتر،

خصوصاً منذ ان توقفوا عن الطيران بشكل دائري فوق الجزيرة.

لم يخبروا المسافرين بشيء ما عدا أن في عدم اطاعتهم للخاطفين خطراً كبيراً. لم يجرؤ احد منهم على القاء اسئلة بعد تلك الأوامر التي صاح بها رجل وهو يصوب مسدسه إلى رأس صبي، لقد شحب وجه الأم وبدا عليها انها موشكة على الموت، بينما بدا وجه الوالد أغبر وكأنه قد شاخ فجأة، أخذ الصبي يبكي وهو يدس وجهه في ذراع والدته، بينما كشر حامل المسدس عن اسنانه بابتسامة خالية من السرور.

«هذا حسن.» قال ذلك بصوت خشن دون ان يتوقع أي جواب بعد أن فهم الجميع الوضع.

رأت روز من جانب عينها التلال الصخرية والوديان الخضراء، هل هي جزيرة يونانية؟ ام انهم ما زالوا قرب إيطاليا؟ هل هذه سردينيا؟ صقلية؟ كلا، فقد امضوا في الجو فترة طويلة... ولكن هذه تبدو لها مألوفة... وتصورت انها لا بد كانت هنا من قبل... وهبط عليها الادراك فجأة... انها قبرص، لقد كانوا يحاولون الهبوط في قبرص.

توقفت الطائرة فجأة عن الطيران، واخذت تميل على جانح واحد لكي تغير من اتجاهها، وبعد ذلك بلحظة ابتدأت في الهبوط، استقام الرجلان المسلحان واخذا يتمتمان لبعضهما البعض، ليستدير بعد ذلك، الرجل الذي كان يهدد الطفل منذ فترة، صارخاً بالمسافرين بانكليزية مهشمة: «اذهبوا جميعاً إلى مؤخرة الطائرة... انبطحوا جميعاً على الأرض، انبطحوا جميعاً على الأرض في مؤخرة الطائرة مشبكين ايديكم فوق رؤوسكم، الأيدي جميعاً فوق الرؤوس وإلا اطلقت النار.»

ساد الذعر المسافرين وهم يتدافعون إلى المؤخرة ليتبطحوا على وجوههم، وشعرت روز بنفسها ترتجف، فأخذت تكافح لتبدو هادئة. فإذا كانت ستموت، عندئذ.. عندئذ ستموت بسرعة وذلك افضل من الموت البطيء، إذ ان هذا الأخير أسوأ بكثير.

ارتطمت الطائرة بالأرض بعنف، وكأنها سقطت من السماء بسرعة، اخذت بعض التسوة في الصراخ، اما روز فظلت متبطحة بثبات وهي تحاول ان تشغل نفسها بالتركيز على تذكر كل ما حدث، فهذا ما كان والدها سيفعله لو كان مكانها، وكذلك دانيال، فإذا هي نجت فسيكون هذا أهم سبق صحافي في حياتها...

ولهذا هي بحاجة إلى ان تتذكر كل تفاصيل هذه اللحظات... اما اذا لم... حسناً، انها إذن لن تكون بحاجة إلى ذلك..»

* * *

عندما افرغت ايرينا حقيبة ثيابها وارتاحت قليلاً، التحقت بدانيال في غرفة الجلوس حيث جلسا ينتظران وصول روز، واخذ الاثنان يتحدثان وهما يرشفان القهوة وأعينهما على الساعة.

أخيراً قال دانيال وقد بان عليه شيء من القلق: «سأتصل باستعلامات المطار لأرى ما الذي يعيق الطائرة.»

استغرق الاتصال هذا بعض الوقت، وبعد حديث قصير أعاد السماعة إلى مكانها وقد بان الضيق على وجهه وهو يقول: «ثمة مزيد من التأخير كما يقولون. إذ يبدو انهم غير

واثقين من شيء، لقد سألتهم عما إذا كانت الطائرة قد شرعت برحلتها فعلاً، ولكن حديث الفتاة بدا غامضاً للغاية حتى بهذا الخصوص، كل ما كانت تعرفه هو ان الطائرة ستتأخر اكثر من ذلك، قد يكون الجو هو المسؤول، كما تقول، ثم قالت لي ان أعود إلى الاتصال فيما بعد عندما يتوفر لهم المزيد من المعلومات.»

فقالت ايرينا: «آه، مسكينة روز، انني اكره الجلوس في المطارات.»

«لا افهم لماذا لا يضعون المسافرين في طائرة أخرى، ولكنهم لا يفعلون ذلك أبداً، واظن ليس لديهم طائرة احتياطية وخطوط الطيران لا تهتم بتجنيب المسافرين الانتظار ساعات.» ونهض واقفاً. «حسناً، لا فائدة من الجلوس هنا بينما ليس لدينا فكرة عن موعد وصولها، انه مساء جميل ومناسب جداً للتمشي حول باربري وارف وتناول العشاء كما كنا اعتزمنا.»

غادرا البيت بعد ذلك بعشر دقائق، وما ان دخلا المصعد حتى سمعا صوت رنين الهاتف من داخل الشقة، فركض دانيال عائداً وهو يبحث في جيوبه بسرعة عن المفتاح، وعندما وجده في النهاية دخل مندفعاً نحو الهاتف ولكن ما ان مد يده إلى السماعة حتى توقف الرنين.

كانت ايرينا قد عادت إلى الشقة، هي أيضاً ونظرت باهتمام إلى وجهه العابس وقالت: «ربما الأفضل ألا نخرج، أليس علينا ان نجلس بجانب الهاتف إذ قد تكون روز هي المتصلة فتعاود الكرة مرة أخرى؟»

فقال عابساً: «ان لدينا جهاز إجابة، فلو كان صالحاً

www.elromancia.com

لأمكننا ان نتركه مفتوحاً ليسجل رسالة روز، ولكنه تعطل أمس ولم يأت المهندس لاصلاحه بعد، وهذا يكلفني كثيراً لحاجتي الماسة إليه بالنسبة لوظيفتي.»

نظر اليها متأملاً، ثم قال: «انك تعلمين كل شيء عن شكسبير أليس كذلك؟ ان هذا سيساعدك في الكلمات المتقاطعة التي تنشرها صحيفة سنتنال يومياً والتي اخذت شهرة كبيرة، وكلها تدور حول شكسبير، كما انها صعبة تماماً، ولكن بإمكان نيكولاس كاسبيان ان يصنعها، كما قيل لي، اثناء تناوله طعام الافطار عند الصباح، ودون ان يمدد وقت الوجبة.»

فقالت ضاحكة: «انه مخيف، أليس كذلك؟ هل صحيح انه مغرم بكريستا نوردستروم؟»

هز دانيال كتفيه: «من يدري؟ فهو ليس من نوع الرجال الذين يتحدثون عن مغامراتهم العاطفية، كما انني لست صديقاً شخصياً له.»

وما لبث ان خرج دانيال مع ايرينا مرة أخرى، وهذه المرة لم يرجعهما رنين الهاتف.

كان مساءً دافئاً هادئاً، ومياه النهر تتألق بأشعة الشمس الغاربة.

لم يسرع دانيال وايرينا في السير، فقد اخذا يتمشيان على مهل بينما دانيال يشير لها إلى الأماكن الهامة، وعندما حل الظلام كان مبنى سانت بول وساعة بيغ بن يبدوان وكأنهما من الكرتون بالنسبة إلى الشمس الذي كانت تغرب خلفهما.

وصلا أخيراً إلى حدائق بلازا والتي تقوم في قلب باربري وارف والتي كانت تضاء في الليالي بمصابيح من

طراز العهد الفيكتوري كانت تلقى بأنوارها الذهبية على الساحة الفسيحة المكشوفة.

كان لمطعم بيير الفرنسي مظلة جميلة مخططة باللونين الأخضر والذهبي فوق واجهة يستطيع المرء أن يرى من خلالها الزبائن الذين كانوا يتناولون وجباتهم على موائد مضاءة بالشموع.

قال دانيال للنادل الذي جاء يستقبلهما: «لقد كنا حجزنا مائدة لثلاثة، ولكن الشخص الثالث تأخر، ولهذا نحن اثنان فقط هنا.»

تمتم النادل يقول: «ليس ثمة مشكلة يا سيد بروني، وقد حجزت لك مائدتك المفضلة في الزاوية البعيدة.»

عندما تبعاه إلى داخل المطعم، شعرت ايرينا بالأنظار تتجه اليهما، وأومأ دانيال للبعض ممن يعرف، متحدثاً إلى واحد أو اثنين منهم بما في ذلك شقراء خلابة ألقت على ايرينا نظرة سريعة مجفلة، وإذا كانت فكرت في القاء أية اسئلة، فقد فات اوان ذلك ودانيال يسير بايرينا نحو مائدتهما دون كلمة أخرى.

اخذت فاليري نايت تتابعهما بنظراتها رافعة حاجبيها، ماذا يقصد دانيال بهذا حين يخرج مع فتاة بهذه السن بينما كان اعلن خطوبته على روز ايميري؟ يا للرجال! انهم غير أهل للثقة، لقد كانت حقاً تظن ان دانيال كان جاداً في خطوبته لروز، ولكن يبدو انه لم يستطع مقاومة صغيرة مثل هذه، إذ لا يمكن ان تكون قد وصلت إلى العشرين بعد بينما كان دانيال يسير نحو الخامسة والثلاثين. أم تراه اكثر من ذلك؟ مسكينة روز، اتراها تعلم بالفتاة الأخرى؟ كانت فاليري تفكر في كل ذلك وهي تتأملهما عن بعد.

كان اليوم هو الجمعة وقد ابتدأت العطلة الأسبوعية، وكانت فاليري متعبة، فقد كان العمل كثيراً هذا الأسبوع حتى انها عملت عدة ليالٍ إلى ساعة متأخرة في الليلة ما ألقى بظلال تحت عينيها البنفسجيتين، وكان القسم الذي تعمل فيه قد خسر اثنين من المراسلين، حديثاً، ما يعني تراكم الأعمال على الباقين، وقد حدث الشيء نفسه في بقية الأقسام، بطبيعة الحال، ففي الستة أشهر الأخيرة كانت التغيرات في الصحيفة مستمرة، لقد ذهب اعضاء مجلس الإدارة حيث انهم لم يكونوا من مجموعة مؤسسة كاسبيان، كما ان نيكولاس كان يخفض من عدد الموظفين من كل الأقسام وقد اصبح جو العمل مؤخراً، من التوتر بحيث ان كثيراً من موظفي الصحيفة القدامى اما تقاعدوا، واما استقالوا بناءً على طلبهم.

لقد كان الوضع كله مثيراً للإضطراب، كانت فاليري تفكر في ذلك وهي ترشف القهوة التي كانت طلبتها، كان المفروض ان تتناول العشاء مع استيبان، ولكنه لم يصل بعد، لكنها لم تكن تهتم لذلك، فقد كان ما تعانيه من إرهاق يجعلها لا تهتم لشيء في تلك اللحظة، وهكذا مالت إلى مسند مقعدها المخملي واغمضت عينيها.

«هل تتعبين في العمل؟»

نبهها من غفوتها ذلك الصوت الساخر فرفعت جفنيها الثقيلتين رغم انها لم تكن بحاجة إلى ان تنظر إلى صاحبه لتعرف فيه جيب كولينوود.

فقالت له: «أسكت قبل ان تبدأ.»

فقال مدعياً عدم الفهم: «أبدأ بماذا؟»

«بالنيل مني.»

شعرت بالضيق وهو يحدد فيها النظر، كانت عيناه البنيتان تجولان عليها. أضافت باستياء: «وكف أيضاً عن التحديق بي.» ذلك لأن نظرات جيب كانت تحتوي على شيء جعل اعصابها تتوتر.

فقال ببطء، لاوياً شفتيه: «إذا كنت لا تحبين ان يحدق اليك الرجال، لماذا ترتدين إذن مثل هذه الثياب؟»

أجابت بحدة: «ما عداك أنت. فأنا لا أريدك ان تحدق بي، لا أحب الطريقة التي تنظر فيها إليّ.»

لقد افسد عليها لحظة راحتها هذه فأصبحت متوترة يتملكها الإنزعاج... ولو لم تكن بانتظار استيبان، لغادرت المطعم، اين هو ولماذا تأخر؟ وتملكها الضيق.

سألها جيب ببطء: «هل تنتظرين احداً؟»

«ابتعد عني.» لم تنظر اليه، كانت تريد ان تتجاهله تماماً.

ولكن هذا لم يكن سهلاً، فقد كان ذا وسامة لا تدع سبيلاً لتجاهله كما كان فارع الطول رياضياً من الطراز الأول. فهو يمارس اغلب انواع الرياضة كالسباحة والركض والعاب القوى. وكانت فاليري لا تستطيع انكار جاذبيته، فقد كان نموذج الرجل الذي يعجبها... ولكن من المؤسف انه كان متزوجاً.

جلس جيب بجانبها ما ضايقها جداً، فنظرت إليه ببرودة، قائلة: «هل لك من فضلك، ان تجلس في مكان آخر؟ انني بانتظار شخص سيأتي في أية لحظة ولا أريده أن يأخذ عني فكرة سيئة عندما يراك معي.»

فكان جوابه الوحيد ان ابتسم ساخراً، ومر بجانبهما احد المراسلين العاملين في القسم التجاري في الصحيفة وذلك حيث يعمل جيب نفسه، وكان المراسل في طريقه للخروج

فحيا جيب، ثم حنى رأسه لفاليري يحييها بأدب، ثم سأل جيب: «هل أنت ذاهب إلى الحفلة ليلة السبت القادم؟»

فأومأ هذا قائلاً: «بالتأكيد، سأراك هناك يا وولتر.»

وعندما ذهب الرجل، ألقى جيب على فاليري نظرة جانبية، ثم سألها: «هل أنت ذاهبة إلى الحفلة؟»

فهزت كتفيها: «ربما.»

«اتريدين ان اوصلك معي؟»

نظرت إليه ساخرة: «كلا، شكراً.»

«هل هناك شخص آخر سيأخذك؟»

«ربما.»

«استيبان؟»

هزت كتفيها مرة أخرى، ولم تزعج نفسها بالجواب، فأخذ هو يتأملها، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك. وبقي وجهها جامداً.

فعاد يقول: «هل هو من تواعدت معه هذه الليلة؟» فأومأت إيجاباً، وساد الصمت، وأخذت هي ترشف قهوتها شاعرة بفمها جافاً وكأنها متوترة الاعصاب.

كانت تكره الاعتراف بأن جيب يثير الاضطراب في نفسها، كما انه يزعجها أيضاً، لماذا لا يمتثل لكلمة الرفض منها ويدعها وشأنها؟

لكنه قال فجأة: «اخبرني المحامي ان طلاقي سيكون نافذاً في أي وقت، الآن.»

فقالت بحدة: «هذا ما تقوله لي دوماً، ولكن يبدو ان هذا لن يحدث أبداً.»

«ان هذه الأمور تستغرق وقتاً، وعليّ ان اتذرع بالصبر،

كما يقول المحامي.» التفت اليها يحدق في وجهها وهو يقول: «ان زوجتي رحلت مع رجل آخر تريد ان تتزوجه، ولهفتها إلى الطلاق بقدر لهفتي إليه يا فاليري.»

فقالت ساخرة: «هذا مؤكد.»

«اسمعي، ماذا عليّ ان افعله لأثبت لك ان ما اقوله هي الحقيقة؟ كنت سأعطيك عنوانها لكي تذهبي وتقابليها ولكنها تعيش في الناحية الأخرى من العالم.»

فابتسمت له بجفاء: «هذا صحيح.» جلس جيب صامتاً عدة لحظات، محملقاً فيها: «حضرت في الشهر الماضي، اجتماعاً...»

«أي اجتماع؟»

«اجتماع في مؤسسة كاسبيان الدولية.»

«آه...»

«وعندما كنت هناك، وكان ذلك في لكسمبورغ، قابلت محاسباً يعمل في صحيفة مدريد.»

بانت اليقظة في عينيها، بينما تابع جيب يقول برقة: «كان يعرف استيبان سيباستيان تماماً، فقد حضر حفلة زفافه.»

بان الغضب البالغ في عيني فاليري: «هذا كذب، لأن استيبان غير متزوج، لقد ذهبت إلى شقته، ولم أر آثار أية امرأة تسكن معه.»

ببرودة، اجابها قائلاً: «ربما زوجته لا تسكن معه في لندن، ولكنه رجل متزوج فعلاً.»

«هذا غير صحيح.»

رفع صوته فوق صوتها: «اساليه إذن.» ثم وقف وتركها إلى الداخل، فنظرت هي في أثره بغضب، ولكنها لم تستطع منع نفسها من ان تلاحظ عدة نساء يلتفتن اليه بإعجاب وهو

يخطو بينهن بأناقته البادية وحركاته القوية الرشيقة، قد يلاحقها جيب من وقت لآخر، ولكن النساء كن يلاحقنه هو أيضاً، ولم تستطع فاليري ان تنكر أنه لو لم يكن متزوجاً...

لكنها عادت تحدث نفسها باستياء، انه متزوج فعلاً، ثم كيف يكذب بهذه الصراحة بالنسبة إلى استيبان؟ كانت تعلم ان الغيرة تتملكه من استيبان، وذلك منذ وقت طويل، ولكنها لم تكن تظن قط انه سيكذب بشأنه، نعم، كان ما قاله كذباً، وهي واثقة من ذلك، لأنها كانت سألت استيبان في بداية تعارفهما، وهي تضحك: «اظن لديك زوجة تنتظرك في الوطن.» ولكنه هز رأسه حينذاك، برصانته المعهودة ثم اجاب بهدوء: «كلا، ليس لدي من ينتظرني في أي مكان.»

كانا في ذلك الحين، ما يزالان غريبين عن بعضهما البعض، ولكن لم يخطر في بالها ان تشك في قوله ذاك، والآن وقد اصبحت تعرف استيبان اكثر من السابق، كانت واثقة من انه كان يقول الحقيقة، فشعوره العميق بكرامته لا تسمح له بأن يكذب، خصوصاً بالنسبة إلى أمر هام كهذا، وعلى كل حال، فقد كان في صوته حزن ووحشة ما جعله مقنعاً تماماً.

لكن هذا لا يعني ان استيبان قد حدثها الكثير عن نفسه، حتى الآن، فهو ليس بالرجل الثرثار، كان في الواقع، رجلاً متحفظاً كتوماً، لا يكاد يتحدث عن حياته السابقة، وإذا ما ألقت عليه سؤالاً ما، فهو يجيبها برقة، بعد تفكير عميق، ولن يدهشها إذا هي عرفت ان هناك الكثير عنه مما لا تعلمه... ولكنها كانت متأكدة من أنه رجل مستقيم.

سمعت صوت باب المطعم من ناحية بلازا ينفتح فنظرت ناحيته، كان استيبان قادماً نحوها بخطوات واسعة: «آسف

جداً، يا فاليري، لقد تأخرت بعد ان سمعت ذلك الخبر الحزين عن روز إيميري.» وكانت نبرات صوته بالغة الخطورة، فسألته مقطبة الجبين: «وما هو ذلك الخبر الحزين عن روز؟»

فجلس بجانبها وهو يقول: «ألم تسمعي بذلك؟ انا آسف، هل هي من صديقاتك؟ كانت قادمة من روما عندما اختطف طائرتها إرهابيون.»

فتحت فاليري عينيها على اتساعهما: «آه، ما افظع ذلك، هل هي بخير؟ اعني... هل ما زالت... هل هناك خبر عنها؟»

«كلا، حتى الآن، ما عدا انها على متن الطائرة.»

فارتجفت فاليري: «لا يمكن لي ان اقبل أبداً بأن اكون مراسلة صحيفة. فأعصابي لا تحتمل ذلك، مسكينة روز، فهذا خبر هائل... هل هناك من اخبر والدها؟» وتذكرت فجأة دانيال، فالتفتت تحدق إلى نهاية المطعم المظلمة وهي تقول: «لا اظن دانيال علم بذلك.» فقد تذكرت وجهه الباسم عندما مر بجانبها، لم يكن وجهه عابساً أو متجهماً أو كئيباً.

فقال استيبان بشيء من الغضب: «لم نستطع ان نعثر عليه.»

فقالت له: «انه هنا، في تلك الزاوية هناك...»

تابع استيبان إشارتها ببصره ثم وقف يقول: «هل لك ان تعذريني لحظة، يا فاليري؟ انني سأذهب لأتحدث اليه.»

فوقفت فاليري، هي أيضاً، ولكن استيبان نظر اليها بعينيه السوداوين اللامعتين وهو يقول بإشارة حاسمة من يده: «كلا، إبقي هنا من فضلك.»

ثم استدار على عقبيه مبتعداً عنها بخطواته الواسعة، بينما وقفت هي تحدق في أثره فاتحة فمها وهي تفكر، بشيء من الضيق، بمبلغ استبداده، من السهل عليه القاء

أوامره عليها، كما يبدو، فقد صدر ذلك عنه بشكل طبيعي تماماً، ما نوع الأسرة التي جاء منها، في اسبانيا؟

لم ينتبه دانيال وايرينا إلى ذلك الرجل الطويل القامة الأسود الشعر والذي كان واقفاً ينظر إليهما، فقد كانا مستغرقين في الحديث إلى حد بالغ، كان دانيال يحدثها بقصص مرحة شيقة عن والدها، وكانت هي تستمع إليه ضاحكة مسرورة بأخبار والدها، وقد وضعت مرفقيها على المائدة ووجهها بين كفيها وقد استرسل شعرها الطويل على إحدى كتفيها، كانت تبدو صغيرة السن تماماً ورائعة الجمال، فقد كانت عيناها الكبيرتان تتألقان بشكل غامض في وجهها الرقيق.

أخذ استيبان ينظر اليها وهو يتقدم نحوهما وقد بانت القسوة على ملامحه. بدت له هذه الفتاة الصغيرة وكأنها مجنونة حباً بذلك الرجل الجالس قبالتها، وهذا ما زاد في غضبه، وقف بجانب المائدة فرفع دانيال بصره اليه بدهشة.

ثم ابتسم قائلاً له بمودة: «مرحباً، يا استيبان، انت مرة أخرى؟ اننا نتصادف كثيراً، أليس كذلك؟»

لكن استيبان لم يبتسم، وإنما قال باختصار: «ان لديّ خبراً سيئاً لك، انني اعلم ان نيكولاس يريد ان يخبرك به بنفسه، وكان الجميع يبحثون عنك، فيتصلون ببيتك دون جواب، وكذلك يتصلون بأصدقائك يسألون عنك، ولكن لم يكن يعرف احد مكانك.»

بدا القلق على دانيال وهو يلحظ عبوس ملامح استيبان، تسمرت عيناه على وجه الرجل: «أي خبر؟ ما الذي تتحدث عنه؟»

نظرت ايرينا اليه بعطف وقلق ورأى استيبان نظرتها تلك،

فقطب جبينه: «بينما انت تخرج مع حبيبتك الجديدة، تجلس روز في طائرة مخطوفة في مطار قبرص.»

قال ذلك والإزدراء يتجلى في صوته، فاستحال دانيال إلى حجر، ولكن ايرينا لم تستطع ان تفهم ما قاله استيبان بانكليزيتها الثقيلة، أو ربما جعل الغضب لغة استيبان صعبة الفهم عليها، كان رجلاً مزعجاً حقاً... لماذا يحدّق اليهما بهذا الشكل وكأنهما قد اقترفا شيئاً ما؟

سألت دانيال مقطبة الجبين: «ما الذي يعنيه بقوله (جالسة في الطائرة... أين؟» وعندما ابتدأت تفهم ما قاله لهما استيبان بتلك اللهجة الحادة، شحب وجهها: «دانيال... هل حدث شيء لروز؟»

لم يجب دانيال، فقد كان شاحب الوجه هو الآخر وقد انعقدت الخطوط على جبينه، ثم أخذ يتحدث بصوت أبح: «متى حدث هذا؟ خطف الطائرة؟ إرهابيون؟ من؟ هل تضرر أحد؟ هل قلت قبرص؟ وما الذي جعل طائرتها تذهب إلى هناك خارجة من روما؟»

فكررت ايرينا قوله: «ارهابيون؟ ماذا حدث لشقيقتي، يا دانيال؟»

التفت استيبان اليها بسرعة وقد ضاقت عيناه: «شقيقتك؟ هل روز شقيقتك؟» واخذ يتفحص وجهها ليرى ان كان هناك شبه بينها وبين روز فلم ير شيئاً، وكاد يتساءل عما إذا كان لم يسمع جيداً ما قالت.

سأله دانيال بحدة، وكان قد وقف الآن: «اخبرني، ارجوك، هل روز حية؟»

كان كل شخص في المطعم يستمع اليهم وهم يتهامسون

وقد بان الذهول على وجوههم إذ كانوا جميعاً يعملون في صحيفة سنتنال وكانوا كلهم يعرفون دانيال واستيبان ولكثرهم كانوا يعرفون روز أيضاً.

أجاب استيبان ببطء وهو ما زال يحدق في ايرينا مقطباً حاجبيه: «لا ندري.»

استدار دانيال على عقبيه، ثم سار مسرعاً نحو الباب وهو يقول لرئيس الندل الذي كان منتبهاً لما حدث، ويدور حولهم ليرى ما بإمكانه ان يفعل، كان يقول له: «ان عليّ ان اذهب ويمكنك ان ترسل فاتورة الحساب إلى مكتبي، من فضلك.»

فانحنى الرجل يقول: «بكل تأكيد، يا سيد بروني.»

لحقت ايرينا بدانيال تمسك بذراعه، وكانت الشمس قد غربت: «إلى أين انت ذاهب، يا دانيال؟ ماذا حدث لروز؟ لم افهم جيداً اخبرني من فضلك...»

فقال دانيال بخشونة: «لقد أرغم ارهابيون طائرتها على التحول إلى قبرص.»

همست وقد شحب وجهها: «آه، كلا...»

نظر إليها وتأوه لأجلها، فقد كانت صغيرة السن بالنسبة لأمور كهذه، ولكن لم يكن لديه وقت لتخفيف ذعرها.

«اسمعي، يا ايرينا، ان عليّ ان اذهب الآن، فأنا مستعجل للوصول إلى روز في أسرع وقت ممكن... ان عليّ ان اكون هناك، هل تفهمين؟... وذلك في حالة ما...»

فتمسكت بيده تومىء برأسها وهي تقول بسرعة: «نعم، نعم، حتى اذا اطلقوا سراحها ستكون بحاجة اليك.»

ارتجفت شفتاه الشاحبتان: «نعم، وأنا آسف إذ اتركك وحدك، انني سأطلب من جينا ان تهتم بأمرك، هل تذكرين

جينا من باريس؟ هو ذا مفتاح شقتي وسأطلب من جينا أن تعيدك اليها، ولكن إبقي هناك فقط وانتظري الأخبار.»

واستدار دون انتظار جوابها، واخذ يركض في ساحة بلازا وايرينا لاحقة به ممسكة بيدها المرتجفة بالمفتاح الذي اعطاها إياه، وقبل ان يبتعدا، إذا بجينا ونيكولاس قادمان للبحث عنهما، بعد ان تلقيا هاتفاً من استيبان يقول فيه ان دانيال في الطريق اليهما.

وقف دانيال جامداً في مكانه ينتظر اقترابهما، وانهمرت دموع جينا وهي تراه: «أواه... يا دانيال...»

فأخذ يحدق من فوق كتفها إلى وجه نيكولاس المتجهم، وسأله بصوت مبحوح: «هل ثمة خبر جديد؟»

فقال نيكولاس: «نعم، مع الأسف.» ورأى دانيال في عينيه انه كان حائراً كيف يخبره بما عنده.

وبعنف بالغ، قال دانيال: «اخبرني به فقط، يا نيكولاس، لا تخف عني شيئاً.»

تنهد نيكولاس: «لقد عيّن الإرهابيون وقتاً محدداً، فإما استجابة مطالبهم قبل ظهر الغد، وإما ان يبدأوا بإطلاق الرصاص على الرهائن، واحداً كل ساعة.»

www.elromancia.com

الفصل الثالث

قالت جينا لدانيال بهدوء: «ألا تظن من الأفضل أن تأتي ايرينا معي إلى منزلي؟ فأنت تعرف كيف يتصرف بعض المراسلين الصحفيين... فقد ترسل إحدى الصحف التي تنافسنا شخصاً إلى شقتك، وأنت لا تريد أن تتعرض ايرينا إلى اهتمام الإعلام، أليس كذلك؟»

«نعم، إنك على حق.» وافقها دانيال على ذلك بذهن شبه غائب، فقد كان جلده ينضح عرقاً وهو يفكر في روز. لم يكن يستطيع أن يفكر بوضوح أو يشعر بالراحة. كانت روز تحتل كل تفكيره، وقال: «شكراً لدعوتك هذه، يا جينا.»

قالت جينا: «وهكذا، إذا أردت الاتصال بها، فتذكر أنها في منزلي.» كانت تقول ذلك وهي تنظر إليه، مدركة أنه لم يكن يفهم أو يستوعب ما تقول.

فتمتم نيكولاس يقول لها: «سأنكره بذلك حين يتصل بي من قبرص.»

عانقت ايرينا دانيال والدموع تنهمر من عينيها، وهي تحاول أن تقول ما يخفف عنه، ولكن لغتها الانكليزية خانتها أمام حدة عواطفها.

فأخذ هو يربت على كتفها بخشونة: «سيكون الأمر على ما يرام، يا ايرينا ولا تقلقي على روز. فقد اعتادت على مثل هذه الأمور من قبل. وجينا سترعاك، فهي تسكن في نفس البناية التي أسكنها أنا.» ومن فوق رأسها ألقى إلى جينا بنظرة متوسلة، فتقدمت هذه تحيط

ايرينا بذراعها، وهي تقول برقة زائدة: «الأفضل أن نذهب الآن. إن دانيال والآخرين لديهم الكثير من العمل.»

فاومأت ايرينا برأسها وسارت معها بعد أن ألقت نظرة على وجه دانيال الشاحب متمنية لو أن بإمكانها الذهاب معه.

أخذتها جينا بسيارتها عائدة إلى البناية حيث دخلت ايرينا إلى شقة دانيال لكي تحضر بعض الحاجيات لقضاء الليلة. ولم تكن البناية ناطحة سحاب، وهكذا سرعان ما توقف بها المصعد عند الطابق الأخير وكان الساكن في البناية يحتاج عادة، إلى مفتاح خاص يستعمله للمصعد وللسلم معاً، وذلك للطوارىء.

قالت جينا: «لا يستطيع أحد الدخول إلى البناية بسهولة، إذ عليه أولاً أن يتصل هاتفياً من مركز الاستقبال، حيث يصحبهم البواب إلى أعلى.»

كان في الطابق الأخير شقتان فقط، كما قالت لها جينا، والشقة الثانية تعود إلى صاحب البناية، ولكنه يعيش في جزر كيمان معظم السنة.

ثم ابتسمت قائلة وهي تجول بايرينا أنحاء شقتها: «إنني لم أره قط. هذه غرفة الجلوس.»

فقالت ايرينا بأدب: «إنها أنيقة للغاية.» فقد كانت ترغم نفسها على الابتسام وإن تكن الحقيقة أن الغرفة كانت أنيقة حقاً فقد كانت مؤثثة بشكل متقن، ولكن كان عليها أن تظهر شيئاً من اهتمام لم تكن تشعر به حالياً.

نظرت إلى جهاز التلفزيون الموضوع في الزاوية وقد تنازعها الخوف والرجاء من أن تفتحه لسماع الأخبار.

وكانت جينا تقول: «إنني لم أؤثثها بنفسي، وإنما ورثت

كل شيء في هذه الغرفة من جد زوجي. وهكذا لم يكن ثمة ما يوجب شرائي لأثاث جديد. فوجود أشياء مألوفة حولي يجعل الشقة تبدو أشبه بالبيت الحقيقي.»

«جد زوجك...؟» وتذكرت ايرينا كل ما كان والدها أخبرها به، فتابعت تقول: «تعنين السير جورج...»

فاومأت جينا: «نعم، جورج تيريل. ويا ليتك تعرفت إليه... كم كان عزيزاً علي لقد كنت أحبه كثيراً.»

أخذت ايرينا تنظر حولها: «هل تسكنين هنا بمفردك؟» وأدركت فجأة مبلغ اتساع ورفاهية هذه الشقة، حيث أن غرفة الجلوس هذه وحدها كانت أكبر من شقة والدها في باريس، بأكملها.

فابتسمت جينا لها بأسى: «أعلم ذلك، فهي كبيرة جداً بالنسبة لشخص واحد. ولكن كان عليك أن تري المنزل الذي كنت أعيش فيه قبل انتقالي إلى هنا. لقد ترك لي السير جورج ذلك المنزل أيضاً... وكرهت بيعه لأنني كنت أعلم كم كان يحبه... ولكنه كان عبارة عن قصر صغير، وهو كبير جداً بالنسبة لشخص واحد.»

«هل تقومين بأعمال المنزل بنفسك؟» ألقت عليها ايرينا هذا السؤال بعد أن رأت أن الأثاث كان فخماً قديم الطراز، والكراسي والأرائك من طراز القرن الثامن عشر، والمناضد بالغة اللمعان، وكذلك المرآة المذهبة على أحد الجدران. كما كان هناك لوحات فنية على جدار آخر، كانت الغرفة بالغة النظافة والنظام. ولا بد أن هناك من يبذل غاية الجهد لكي يجعلها تبدو كذلك.

فهزت جينا رأسها: «كلا، بل هناك امرأة تأتي يومياً عند

الصباح، ولكن بما أنني أسكن وحدي، فالشقة تبقى منظمة نظيفة على الدوام. تعالي أريك غرفتك.»

نظرت ايرينا إلى جهاز الهاتف، وفتحت فمها لكي تحتج، ولكن جينا كانت قد أصبحت خارج الغرفة، وهكذا تنهدت ايرينا ثم تبعتها إلى غرفة نوم جميلة بلونيها الوردي والأبيض. فقالت: «ما أجملها.»

لكنها لم تكن تنظر إلى الأثاث، فقد أخذت تحدق إلى جهاز تلفزيون صغير أبيض اللون موضوع على منضدة أمام السرير.

فابتسمت جينا: «هذا حسن. إجلسي هنا ريثما أصنع فنجاني كاكاو ساخن لنا معاً. أرى أن تذهبي إلى فراشك مبكرة، أليس كذلك؟ فقد أمضيت نهاراً شاقاً مجهداً.»

كانت قد نقلت حقيبة ايرينا الصغيرة ووضعتها بجانب السرير، فجاهدت ايرينا في أن تبتسم لها، رغم ارتجاف شفتيها والكآبة التي تطل من عينيها.

خرجت جينا من الغرفة مغلقة الباب خلفها، فاندفعت ايرينا نحو التلفزيون ففتحته ثم أخذت تنتقل من محطة إلى أخرى إلى أن وجدت برنامجاً إخبارياً، فوقفت تستمع وهي تقرض أظافرها كالأطفال، وقد تسمرت نظراتها على الشاشة. كان هناك مشهد طائرة قد صوّرت من بعيد ما جعلها تبدو كلعبة أطفال. ولكن هذه لم تكن لعبة، فقد كانت جدية إلى حد بالغ.

لم يكن ثمة أخبار حقيقية. فقد هبطت الطائرة في قبرص، وكانت الشرطة تتحدث إلى الإرهابيين على راديو الطائرة. لم يكن يحدث شيء. ولم يكن الرصاص أطلق على أحد منهم بعد، وكان ذلك أهم شيء بالنسبة إلى ايرينا. عند ذلك تنهدت بارتياح، ثم تركت التلفزيون مفتوحاً وأخذت

تخرج حاجياتها من الحقيبة، ملقية بقميص منزلي في الخزانة، هذا بينما كان الإضطراب يتملك ذهنها المشغول بالتفكير في شقيقتها.

كان كلام جينا صحيحاً، ولكن ايرينا كانت تعلم أن النوم لن يطرق جفنيها هذه الليلة، وهي لا تعلم إن كانت شقيقتها حية أم ميتة. إنها ستكون سخرية بالغة من الحظ أن تعلم، بعد كل تلك السنوات، أن لها شقيقة، ثم إذا بها تفقدها في مثل هذه الظروف المفجعة.

أزاحت الستائر لتنظر إلى مشهد لندن في الليل، إلى الأنوار المنبعثة من مصابيح المباني المتألقة، والمنعكسة على مياه النهر المظلمة.

تمنت لو أنها في اسبانيا الآن، واقفة في غرفتها في منزلهم القروي، تنظر إلى الظلام والسكون في الخارج، فلا ضوء هناك لبيت آخر في المنطقة... لا شيء سوى لمعان النجوم في سماء الليل، وانحناءات الجبال السوداء في الأفق. لأول مرة، تشعر ايرينا بحنين إلى موطنها، فقد شعرت بالضياع... بالغربة، وبأنها في غير مكانها الطبيعي. وأغمضت عينيها تتخيّل أنها في منزلها في الوطن. تستمع إلى نواح قطة وحشية يخترق سكون الليل حول مخازن الغلال، ما يبعد عنها الجراذين والفئران. أو صفير الريح بين أغصان شجر الزيتون، كلب ينبح في الوادي، حفيف فسائل أشجار البرتقال المغروسة في أصص فخارية ضخمة.

كانت المزرعة تقوم في الداخل، بعيدة حوالي الخمسين ميلاً عن الشريط الساحلي بفنادقه البيضاء وحدائقه الاستوائية، ومبانيه وشققه المخصصة للأجانب، وكذلك

مطاعمه ونواديه. تلك كانت اسبانيا التي لم تعرفها ايرينا. فقد كانت نشأت في أسبانيا القديمة والتي نقع ترابها بالدم أثناء الحرب الأهلية المرة... تلك التي عرفت الجوع والموت، والبرد القارس والرياح الهوجاء أثناء فصل الشتاء، وحرارة الشمس المحرقة أثناء فصل الصيف.

كانت لندن غريبة مخيفة. وهذه الليلة كان منظرها مخيفاً، فأضواء مصابيح الشارع تنعكس على السحب المتراكمة، وأبراج المباني العالية تلوح في الأفق. حتى صوت حركة السير الرائجة، كانت الآن تبدو وكأنها زئير أسد غاضب.

تمنت لو تذهب إلى والدها تلتمس عنده السلوان، كما تسري عنه هو أيضاً... ولكنه كان في طريقه إلى فيتنام الآن، ولا مجال للوصول إليه في الطائرة، ولن يعلم ما حدث لابنته إلا بعد وصوله. وشعرت ايرينا بألم بالغ لأجله، فهذا سيسبب له صدمة كبرى، أكبر كثيراً مما حدث لها هي.

مضى وقت كانت ايرينا تشعر فيه بالمرارة من والدها... ولكن ذلك كان قبل أن تلقاه فتشعر نحوه بحب لم تكن تتوقعه. ثم أصبحت شغوفاً به، وقد ابتدأت تشعر نفس الشيء نحو شقيقتها روز. عندما سمعت بها لأول مرة، شعرت بالغيرة لأن روز عاشت دوماً مع والدها، وكان من الواضح أن الصلة بينهما وثيقة جداً. فوالدها دائم الذكر لها ما جعل ايرينا تشعر بالهجران، والاستبعاد من هذه الأسرة الصغيرة التي كانا يؤلفانها. إلى أن قابلت روز أخيراً، فكان تأثير ذلك عليها كبيراً حين تصرفت روز معها على الفور تصرف شقيقة مع شقيقتها، دون أي بادرة نفور أو عداء.

كانت زيارتها هذه إلى لندن فرصة سانحة لها لكي تتعرف

إلى روز بشكل كامل، إنما الآن قد لا يحدث هذا على الاطلاق. وشعرت ايرينا بعينيها يغرورقان بدموع محرقة لم تنهمر.

«الكاكاو جاهز.» جاء صوت جينا من خلفها دون أن تسمعها ايرينا تفتح الباب.

فتمتمت تقول وهي تمسح عينيها بيدها: «إنني قادمة.»

قالت جينا وهي تتنهد: «إذا كنت تريدين أن تنظري إلى التلفزيون فالأفضل أن يكون ذلك معي. هيا بنا... وإن كنت لا أظن جديداً سيحصل قبل مدة طويلة.»

• • •

وفي قبرص، كانت الطائرة قد هبطت، ثم سارت إلى منتصف المدرج، حيث توقفت وقد هبط الليل الآن، ولكن قوس الأضواء الكبير كان ينير المطار بأكمله بطريقة مخيفة.

فإذا ما نظرت روز جانبياً، أمكنها أن ترى محيط المطار، والشرطة والسيارات العسكرية التي كانت تقف في مسافة آمنة. ورجالاً يراقبون الطائرة بالمناظير المقربة وبين لحظة وأخرى كان رجل يندفع من تحت غطاء ساتر، ثم يعود إليه مرة أخرى. كما وقف رجل يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض، يتفحص الطائرة بمنظاره المقرب.

إلى أي حد يستطيع أن يرى؟ أتراه ينظر إليها كما تنظر هي إليه؟ إنه يشبه دانيال من بعيد. فهو نحيف طويل القامة مثله وذو شعر أسود. واغرورقت عيناها بالدموع فأخذت تغالبها بسرعة، فهي لا تريد أن تبكي. ورفعت رأسها ثم أخذت تحدق أمامها بجمود.

كانت امرأة أمامها تختضني طفلتها التي كانت تبكي وهي تتمتم ملاطفة وصرخ فيها أصغر الإرهابيين سناً لكي

تسكتها، فأجفلت وانحنت فوق الطفلة تضع يدها على فمها وهي تهمس لها بسرعة باللغة الإيطالية، فدست الطفلة رأسها في صدر أمها وهي تشهق.

وجاء الرجل الذي يتكلم الانكليزية وتمتم بشيء لرفيقيه بلغة بدت لروز أشبه بالعربية. وتمنت لو كانت تعلمت المزيد من هذه اللغة. ولكن المشكلة هي أنه في هذه البلاد العربية التي كانت زارتها مع والدها، وجدت من الأسهل عليها التحدث بالفرنسية والتي هي لغة شائعة في بلاد المغرب مثل مراكش والجزائر حيث أنها كانت تحت حكم الفرنسيين من قبل.

وفجأة، زعق قائد الإرهابيين بأمر هو: «أحضروا جوازات سفركم.»

تحرك الجميع وقد شحبت وجوههم وتملكهم التوتر، شاعرين بالراحة للسماح لهم بالحركة... للقيام بعمل ما، ولكنهم كانوا يتساءلون عن معنى ذلك، وعما إذا كان ثمة أمل في إطلاق سراحهم، أم أن هناك المزيد من الشؤم خلف ذلك؟ وكان جواز سفر روز في حقيبة يدها، فأخرجته بسرعة وأمسكت به بيدها، شاعرة بالعرق يسيل من ظهرها ما جعل قميصها يلتصق بها، بينما التمعت على جبينها أيضاً.

أشار المسلح إلى غلام يرتدي بنطلون جينز وقميصاً مقفلاً: «إجمع أنت الجوازات واحضرها إليّ.»

أخذ الغلام يدور على المسافرين وهو يرتجف بينما كان المسلحون يصوبون مسدساتهم نحو ظهره. وناولته روز جوازها وهي تنظر إليه بعطف. ربما كان يمضي إجازة في إيطاليا وهو الآن راجع إلى وطنه، فقد كان بمفرده، ولا بد أن الذعر يتملك والديه الآن.

لا بد أن دانيال قد جن جنونه كذلك، وأغمضت عينيها لا تريد أن تفكر فيه، إذ لا فائدة من ذلك سوى جعلها تبكي. ولكن كيف يمكنها أن تمنع أفكارها عنه؟

قد لا ترى دانيال بعد الآن... أبداً وأخذت هذه الكلمة تجول في ذهنها، فارتجفت... يا لها من كلمة هائلة.

أخذ قائد الإرهابيين الجوازات وذهب بها إلى قمرة الطيار. وفي الخارج سمع المسافرون عويل صفارة الإنذار وصوت عجلات على الأسفلت، فسرت حركة بينهم وهم يتهامسون.

«سكوت، لا تتحركوا، لا تتكلموا.»

صرخ واحد من الإرهابيين بهذه الكلمات. وسار اثنان من الإرهابيين، بمشية جانبية، وذلك نحو النوافذ وهم يراقبون المسافرين، شاهرين أسلحتهم. ثم أخذ أحدهما ينظر إلى الخارج بينما بقيت عينا الآخر تراقبان الركاب. كانت الحركات خارج الطائرة تأتي من بعيد، فلا أحد يقترب منها، فعاد الإرهابيان إلى الاسترخاء ولكن روز استطاعت أن ترى أنهما كانا يرتجفان، هما الاثنين.

فكرت في انهما مثلهم في الخوف، كما أن الإحتمال كبير في أن تكون نهايتهم الموت، كم يبلغ أصغرهم سناً، ذاك؟ ثمانية عشر؟ عشرين؟ لقد كانت له بشرة غلام، كما أنه أشبه بالنساء جمالاً. أما الثاني فكان بالغ النحول وعلى وجهه آثار الجدري، وكانت عيناه تلتهبان غضباً، كما كان من التوتر بحيث أن أي شيء قد يجعله ينفجر ثائراً. ولكنه لم يكن هو الذي كان يخيف روز حقاً... وإنما الرجل الآخر. فقد كانت عيناه تشعان كراهية وكان بإمكانه القيام بأي شيء.

توالت الدقائق متتابعة، لتصبح ساعات ومال رأسها إلى جانب وثقلت أجفانها. وتغلب عليها النوم لتحلم بأنها على الطائرة وأن الطائرة اختطفت. وأن رجلاً تشع الكراهية من عينيه يصوّب مسدسه نحوها. فأخذت تصرخ خوفاً.

استيقظت منتفضة، وفتحت عينيها لتدرك على الفور أن حلمها كان حقيقة. وكان قلبها ما زال يخفق وفمها جافاً، أخذت تحدق حولها محمرة العينين شاعرة بالدوار، كان الآخرون نائمين وقد اتكأ الواحد منهم على الآخر. ورأت امرأة أخرى تستيقظ مجفلة مثلها. ورأت وجهها وعينيها المذعورتين وهي تنظر حولها، فأدركت أنها قد رأت هي أيضاً نفس الحلم الذي رأته هي، فاستيقظت لتجد أنه لم يكن حلماً.

تحركت روز في مقعدها موشكة على الصراخ، فقد تشنجت عضلاتها بعد ساعات من الجلوس في نفس الوضع، خصوصاً في حرارة الجو العالية تلك.

نظرت إلى خارج النافذة فرأت الفجر يبزغ من بعيد، صابغاً الأفق بالنار، إنه يوم حار آخر أمامهم حيث تلهب حرارة الشمس هيكل الطائرة المعدني فتجعله كالفرن. لقد كانت الحرارة انخفضت قليلاً أثناء الليل، ولكنها، مع تقدم النهار، ستصبح بشكل لا يمكن احتماله في داخل الطائرة.

فكرت في الماء وقد ألهب جوفها الظمأ، كان فمها جافاً، وثيابها ملتصقة بجسمها ورأسها ينبض بالألم. كان بعض الأولاد رابضين بهدوء. لا بد أنهم ظمأى هم أيضاً، وكذلك خائفون. وكان فرض عدم الحركة أشقى عليهم منه عليها.

أخذت روز تراقب الظلام وهو يتبدد ببطء، بينما تنتشر أشعة الشمس، كان جمالاً يحبس الأنفاس إلى حد بعث الدموع

في عينيها، لم تر في حياتها قط جمالاً كهذا، ولم تفهم لماذا جعلها هذا تبكي، ولكن يبدو ان كل احاسيسها اصبحت أكثر إرهافاً مما هي، ربما هذا ما يعنيه الناس عندما يقولون عن احتمال تملك الذهن فكرة الموت، وارتسمت على شفتيها ابتسامة جافة، وفي تلك اللحظة وقعت عيناها في عيني قائد الارهابيين، فتلاشت ابتسامتها.

• • •

رقدت إيرينا عند بزوغ الفجر، كانت قد سهرت مع جينا حتى ساعة متأخرة من الليل، تراقبان التلفزيون إلى ان انتهى الإرسال عند ذلك اصرت جينا على ان يناما هما الاثنتين، قائلة: «لن يفيد روز بشيء ان تمرضي، ولا اظن لحظة ان شيئاً سيحدث هذه الليلة، فمسألة خطف الطائرة يستغرق حلها ساعات وساعات، ولكن إذا كان ثمة خبر جديد فنحن سنعلم به على الفور... إذ سيتصل بنا دانيال من قبرص، فهو يعرف رقم الهاتف.»

كانت ايرينا من شدة التعب بحيث لم تناقش طويلاً، فعادت متعثرة إلى غرفة النوم الوردية اللون حيث استلقت على الفراش مستيقظة متوترة الأعصاب، إلى ان غلبها النوم أخيراً، ولكن الأحلام راودتها هي أيضاً، إذ كانت مخيفة إلى حد جعلها تستيقظ عدة مرات، قبل أن تعود في النهاية، إلى نوم عميق خالٍ من الكوابيس.

عندما استيقظت في الصباح التالي كان الوقت متأخراً والجو حاراً، ووجدت نفسها وقد رفست الأغطية جميعها ما جعلها تظن نفسها في اسبانيا في مزرعتهم، فابتسمت وقد

تملكتها السعادة، ولكن ذاكرتها ما لبثت أن عادت إليها ففزت جالسة على الفور وهي ترتجف.. آه... روز. كم الوقت الآن، ونظرت إلى ساعتها... الحادية عشرة وثلث! لقد تركتها جينا نائمة ساعات طويلة! قد يكون حدث شيء لروز اثناء نومها، ففزت من الفراش، وعند ذلك سمعت نقراً على بابها.

اجفلت ايرينا وهي تهمس قائلة بالاسبانية: «من هذا؟» ساد صمت في البداية، ثم صوت جينا يقول متردداً: «ايرينا؟ هل انت مستيقظة؟»

«نعم، ماذا حدث؟» قال ايرينا ذلك بالانكليزية وهي تفتح الباب.

كانت جينا مرتدية كامل ثيابها، ولكن وجهها كان شاحباً بعض الشيء، فقالت تجيبها: «لا شيء، ليس هناك اخبار جديدة، ولم يحدث شيء.» ونظرت إلى عيني ايرينا المتلهفتين ثم اضافت تقول: «لم يطلقوا الرصاص على أحد، والأرهابيون يتفاوضون، فقد طلبوا طعاماً وشراباً وأدوية.»

تنهدت ايرينا بينما قالت جينا وهي تقدم اليها فنجاناً: «لقد احضرت إليك قهوة بعد ان سمعتك تتحركين.»

«منذ متى استيقظت أنت؟»

«ليس من مدة طويلة، ربما منذ ساعة.»

«لماذا لم توقظيني؟ كان يجب ان توقظيني.» وكان صوتها يرتجف من الغضب فنظرت جينا إليها بقلق: «آه، ولكنك كنت بحاجة إلى النوم، يا ايرينا، انني آسفة إذا كنت مستاءة، ولكنني فعلت ذلك لمصلحتك.»

تنهدت ايرينا وقد تجهم وجهها: «انا آسفة، يا جينا، ما كان

لي ان أكلمك بهذه الحدة، ولكنني فقط كنت قلقة على روز.»

«أعلم ذلك، ولو كان هناك أي خبر، لايقظتك في الحال، ولكن بما انه لم يكن هناك اخبار جديدة، فقد فكرت في ان من الأفضل أن تبقي نائمة، انك تشعرين بتحسن، أليس كذلك؟ هذا حسن استمتعي بقهوتك إذن، واغتسلي ثم ارتدي ثيابك لكي نتناول شيئاً من الطعام.»

فهزت إيرينا رأسها قائلة: «لا أريد شيئاً.» ولكن جينا نظرت اليها بحزم: «يجب أن تأكلي شيئاً وإلا تسببت لنفسك بالمرض، بعض السلطة والفاكهة... ان هذا سيساعدك على تمضية الوقت اثناء انتظارك للأخبار.»

فقالت لها إيرينا وهي تبتسم بأسى: «هل تحبين إلقاء الأوامر بهذا الشكل دوماً؟»

قالت جينا ضاحكة: «لمصلحتك فقط.» وعادت إلى المطبخ وابتدأت تصنع وجبه خفيفة تصلح ما بين الفطور والغداء... سلطة وفاكهة مع شيء من سمك السلمون المدخن والذي يقدم البيض عادة بجانبه، وسمعت صوت المياه تتدفق في الحمام، فأدركت ان إيرينا لن تتأخر.

تصاعد رنين الهاتف فقفزت تجيبه، ولكنه كان فيليب فقط يدعوها لتناول طعام الغداء معه، فأجابت: «كان هذا سيسرني جداً، ولكن لديّ هنا شقيقة روز مقيمة معي ولا يمكنني تركها بمفردها.»

«لماذا لا؟ كم تبلغ من العمر؟»

«انها في حوالي العشرين من العمر، ولكنها حالياً بالغة القلق نظراً لأن شقيقتها في الطائرة المختطفة، وأظن أن عليّ ألا أدعها بمفردها.»

قال فيليب باستياء: «ما هذا الإزعاج؟ ان عليّ إذن ان اتناول طعامي وحدي وهذا ما اكرهه كثيراً.»

فقالت تلاطفه بشبه ابتسامة: «تعال وتناول الغداء معنا.» وتنهدت، فقد كانت تعلم انه عندما يغضب يتصرف بشكل صبياني.

فقال بعناد: «كلا، لا استطيع تناول الطعام في مثل ذلك الجو الكئيب حيث شقيقة روز الصغرى تملأ جو المكان بكاءً.»

ما ان وضعت جينا السماعة من يدها، حتى هرعت ايرينا إلى الغرفة وما زال شعرها مبتلاً من الدوش: «هل هنالك خبر عن روز؟» وكانت اللهفة بادية عليها، فهزت جينا رأسها نفياً: «كان ذلك اتصالاً من صديق، كيف تشعرين بنفسك الآن؟»

«أحسن.»

«تعالي كلي إذن، فقد انتصف النهار تقريباً وأنا أكاد أموت جوعاً، لا أدري إذا كنت تحبين البيض بجانب السمك المدخن، ولكنني سأقليه الآن.»

لم تكن ايرينا جائعة، ولكن منظر الفاكهة الطازجة وكذلك السلطة جعلتها تأكل أكثر مما كانت تتوقع، بما في ذلك البيض والسمك المدخن وسلطة الفاكهة المدهشة والتي كانت تحتوي على ثمار الفراولة والأناناس والخوخ. ومع كل ذلك تناولت عصير فاكهة طازجة كانت جينا عصرته ووضعته في الثلاجة ليبرد قبل ذلك بساعة، وبعد ذلك اخذتا تتناولان قهوتهما وهما تستمعان إلى نشرة أخبار الساعة الواحدة.

لم يكن ثمة شيء جديد سوى ان الإرهابين تسلموا ما طلبوه من طعام وماء ودواء.

انتهت نشرة الأخبار، فأدارتا محطة التلفزيون تبحثان

عن نشرات أخرى، ولكن لم يكن هناك شيء جديد، واخيراً اقفلتا الجهاز، بينما تنهدت إيرينا وهي تقول: «آه، إلى متى تدوم هذه الحالة؟»

فقالت جينا: «إنها أحياناً تدوم أياماً.» ونظرت إليها بعطف وهي تتابع قائلة: «ان علينا ان نتجمل بالصبر.»

«أعلم ذلك، ولكنه صعب، يا ليت دانيال يتصل بنا.»

«انني واثقة من انه سيفعل ذلك قريباً جداً، ولا بد انه وصل الآن إلى هناك.» وفي الواقع كانت طائرة دانيال الخاصة قد هبطت به الآن في مطار خاص يبعد حوالي الثلاثة أرباع الساعة عن نيقوسيا، وكانت سيارة يقودها سائق في انتظار دانيال هناك، وبينما كانت الطائرة في طريقها إلى قبرص، انشغلت هيزل بها جداً على الهاتف، قائمة بكل الإجراءات الضرورية لتسهيل رحلة دانيال بسرعة إلى سيارة ليموزين سوداء نقلته بعيداً بسرعة بالغة.

وصاح به السائق الذي كان يرتدي ثياباً رسمية قائلاً: «لقد وصلت إليك بسرعة انني أخدم في الجنائز، وسأعطيك بطاقتي في حال احتجتني مجدداً.»

بقي دانيال صامتاً يستمع إلى ما يقوله السائق وذلك طوال الطريق إلى المطار العام حيث كانت الطائرة المخطوفة متوقفة وحدها في وسط ساحة الأسفلت الخالية، ولكن أول ما وقعت عليه نظرات دانيال لم تكن الطائرة، على كل حال، وإنما ذلك الخليط من العربات وسيارات الاسعاف واجهزة الاطفاء وسيارات الشرطة والشاحنات العسكرية وسيارات الجيب.

وما ان نزل دانيال من السيارة، حتى احاط به رجال الشرطة مصرين على تفتيشه، من الرأس حتى أخمص

القدمين، متفحصين جواز سفره وبقية وثائق اثبات الشخصية.

ثم جره رجل بيده إلى جانب وعيناه السوداوان تتفحصان وجهه بعنف، فنظر دانيال إلى ثياب الرجل الرسمية، كان هذا ضابطاً في الجيش ومن رتبة عالية كما بدا لدانيال في أواخر الاربعينات من عمره، قوي الجسم أسمر اللون ذا وجه كأنه قد من الصوان.

ثم قال له من خلال اسنانه، دون حرارة في صوته: «لقد اخبرونا بقدومك، يا سيد بروني.»

تصور دانيال تحركات نيكولاس كاسبيان الخفية في اتصالاته من وراء الستار، ولولا قلقه البالغ لابتسم، كان من الواضح ان هذا الضابط العسكري لم يعجبه أن يفرض عليه الأدب نحوه، ولكن كانت الأوامر قد وصلته من أعلى.

«انني آسف.» قال الرجل هذا دون ان يعني شيئاً مما قال: «ولكن عليّ ان اقوم بوظيفتي ولهذا لا استطيع ان ادعك تتدخل، يجب عليّ ان اطلب منك الالتحاق بفريق الصحافة في مبنى المطار، وان تبقى معهم، ولو لم تكن صحافياً لطلبت منك ان تترك هذه المنطقة تماماً، اننا لا نريد اقارب للرهائن هنا، فهم لا يقومون بأي عمل مفيد، وإنما يعطلوننا عن عملنا فقط، ان هذه عملية عسكرية والوضع متقلب تماماً، وقد يتحول إلى الطريق المضاد في أية لحظة، ان مفاوضات متوترة تدور بيننا حالياً وليس لدينا وقت لشيء آخر.»

فقال دانيال: «اخبرني عما يحدث، على الأقل.»

«ستعلم كل شيء في ذلك المبنى هناك.» قال الضابط هذا وهو يبتعد.

فابتدأ دانيال يقول: «ولكن... اسمعني...» عند ذلك أمسك جندي بذراعه مسرعاً به نحو سيارة جيب.

قال له دانيال بحدة: «لا أريدك ان تدفعني بهذا الشكل.»

فدفعه الجندي إلى السيارة بشدة دون ان يجيبه، ثم أدار المحرك.

فسأله دانيال: «هل لك ان تخبرني إذن بما حدث حتى الآن؟»

نظر إليه الجندي بعدم اكتراث، ثم قال هازئاً، بانكليزية مهشمة: «لا اتكلم الانكليزية.» لم يعلم دانيال ما إذا كان عليه ان يصدقه أم لا، ولكن لم يكن بوسعه سوى قبول ذلك.

عندما أدخل دانيال إلى القاعة التي كان الصحفيون ينتظرون الأخبار فيها، رآه بن وينتر وهو الصحافي الذي يعمل في صحيفة سنتنال والذي كان أول من علم بالطائرة المخطوفة إذ كان ينزل من طائرته في المطار لقضاء إجازته في قبرص، رأى دانيال فقال له: «اخبروني بأنك قادم، يا دانيال، ولكنني لم اتصور انك ستصل بهذه السرعة.»

«لقد أرسلني كاسبيان بطائرته الخاصة.»

فقال بن عابساً: «لقد جئت أنا إلى هنا مع زوجتي وأولادي، فاستغرق سفري ساعات، اظنك ستستلم العمل مني؟»

هز دانيال كتفيه: «سأفعل ذلك إذا كنت تريد متابعة اجازتك.»

«انني لست حريصاً على ذلك، فهذه قصة هائلة، وقد كنت أول من كتب عنها.»

ضحك دانيال، وسكت برهة ثم سأله: «هل هناك أخبار جديدة؟»

فقال بن متردداً: «ليس الكثير، لقد مر الموعد المحدد دون أن يطلقوا النار على أحد...»

فتنهد دانيال بإرتياح بشكل بلغ من عنفه ان سبب له الألم.

وتابع بن يقول: «لقد جرى بينهم المفاوضات لمدة ساعات. لقد طلبوا طعاماً وماء وأدوية، وأظن طلبهم سيستجاب.»

قال دانيال بصوت مرتجف: «هذا هو المعقول. فهو سيخفف من صعوبة الوضع، ويهدىء من حرارته.»

فقال له بن باحترام: «أظنك سبق لك تغطية قضايا خطف طائرات من قبل؟»

فأومأ دانيال، قائلاً: «إنهم يتركونهم يتحدثون لكي يعرفوهم بشكل اوضح، فيستنتجون ما جعلهم يقومون بذلك، ما هي نقاط الضعف فيهم.» وتنهد طويلاً: «حسناً، هذا يبدو وكأنهم غير مزعزعين تماماً كما بدا من قبل. والآن، أخبرني بكل ما حدث منذ البداية.»

الفصل الرابع

مع مرور عصر ذلك اليوم، بقيت ايرينا وجينا على اتصال بغرفة الأخبار في صحيفة سانتنال، ولكن لم تكن هناك اخبار مؤكدة، ذلك ان السلطات في قبرص فرضت تعتيماً على الأخبار، فهم لا يصرحون إلا ما يشعرون به ضرورياً للإدعاء بأن قرارهم إنما فرضه عليهم الوضع والحاجة إلى حصر المعلومات التي يتلقاها الإرهابيون في الراديو في الطائرة كانوا يريدون ان يعتمد الارهابيون عليهم في معرفة ما يحصلون هم عليه من معلومات.

ولكن بإمكان المرء، على الأقل ان يعرف شيئاً عن الجو في مدرج المطار وذلك من التعليقات التي يدلي بها مراسلو التلفزيون في نشرة الأخبار. الحرارة تقرب من الدرجة الأربعين في الظل خارج الطائرة عصر هذا اليوم، ولا بد انها جحيم في داخل الطائرة.» قال ذلك رجل كان لوجهه المتوهج الرطب تأثير أبلغ من كلامه.

بعد سماع دانيال لذلك بوقت قصير، اتصل دانيال بايرينا يقول: «يؤسفني ان اقول ان ليس ثمة خبر عن روز، ولكنهم يقولون هنا ان المفاوضات لأجل اطلاق سراح النساء والأولاد تسير بشكل جيد، رغم ان هذا يستغرق ساعات قبل تنفيذه، وسأخبرك بكل شيء حالما يحصل فحاولي ألا تقلقي كثيراً، هل هناك اخبار من والدك ديسموند؟»

«ولا كلمة، لا اعتقده قد سمع بالأمر بعد.»

«حتى وان سمع فلن يدرك ان روز في تلك الطائرة.» بعد اتصال دانيال هذا بوقت قصير، اتصل نيكولاس من مكتبه وتكلم مع جينا يسألها: «هل اتصل بك دانيال؟ انه يعمل مع المراسل الشاب الذي كان أول من عرف بالقصة في قبرص، وقد تحدثت مع دانيال بنفسي فوجدته هادئاً بما يكفي، ولكن لا بد انه متوتر للغاية رغم ان الوضع يبدو أقل خطورة مما كان في البداية.»

قالت جينا بحدة: «ومن يستطيع ان يعلم من خارج الطائرة بما يحدث في داخلها؟»

فتمتم نيكولاس يقول: «لا تتعبيني بهذه الحدة منك، يا جينا... فأنا غير مسؤول عن وجود روز في الطائرة.»

«انني لم أقل انك مسؤول عن ذلك.» ولكن جينا كانت تشعر انها في عقلها الباطن، كانت تلومه على ذلك، مهما كان ذلك شيئاً غير عادل.

سألها بإيجاز: «كيف حال ايرينا؟»

«المسألة صعبة بالنسبة إليها، ولكنها مثل روز، يمكنها ان تواجه أي موقف.»

«ويبدو انك انت أيضاً كذلك.»

فقالت: «هذا حال النساء.»

«ليس كل النساء.»

فثار غضبها ما جعلها تعد للعشرة قبل ان تقول: «هل لديك شيء تقوله غير هذا، يا سيد كاسبيان؟»

فقال فجأة وقد اصبح مثلها غضباً: «اذهبي إلى الجحيم.» ثم اقفل الهاتف بوجهها، فنظرت جينا إلى السماعة بدهشة، ان تصرفاته تجعلها تجفل احياناً.

في الطائرة اخذت روز تراقب الشفق من ناحية غروب الشمس... لقد كان يوماً طويلاً مرهقاً شاقاً، وكان جسمها متشجناً رطباً، كما كان رأسها ينبض بصداع مؤلم للغاية، ما الذي كان يحدث في قمرة الطيار؟ كانت تتساءل عن هذا، عالمة بأن جميع المسافرين كانوا مثلها تساؤلاً هم أيضاً، وقد تسمرت انظارهم على مقدمة الطائرة حيث كان اصغر الارهابيين سناً واقفاً في الحراسة، كانوا كلهم يعلمون ان هناك مفاوضات وذلك منذ وصل الطعام والماء والدواء، ولكن لم يعرفوا بالضبط ما هي مطالب الارهابيين.

أين هو دانيال الآن؟ اخذت روز تتساءل عن ذلك وهي تحدق إلى ساحة المطار حيث عادت الأضواء تتألق مع حلول الظلام، أتراه موجوداً هنا الآن يراقبها؟ قد يكون والدها هنا أيضاً، فقد كانت تعلم أن القلق سيتملكهما هما الاثنين وكذلك الأسى، ولكنهما اكثر صلابة من معظم الرجال، فهما بإمكانهما الصبر على وضعها هذا اكثر من كثير من الأزواج والآباء، انهما يعرفان ان بإمكانها مواجهة الصعوبات.

صدرت حركة مفاجئة داخل الطائرة جعلتها تنظر حولها، كان جميع المسافرين يحدقون إلى مقدمة الطائرة حيث عاد قائد الارهابيين حاملاً رزمة من الجوازات في يد، ومسدسه في اليد الأخرى وهو يعلن قائلاً: «فليسمع كل واحد منكم، لقد دار حديث طويل مع الرجال في المطار، وقد استجابوا البعض مطالبنا، وقد أذعنا على العالم توضيحاً لمطالبنا واهدافنا... ان يوزع الطعام على مخيمات اللاجئين... وفي مقابل ذلك قررنا ان نطلق سراح جميع النساء والأولاد.»

تصاعدت شهقات من أنحاء الطائرة، وتوهجت وجوه

وشحبت أخرى، واتسعت اعين، وتعلقت الزوجات بازواجهن، والاطفال بأمهاتهم، ثم تصاعد الهمس.

صرخ القائد بحدة: «لا أريد كلاماً وابقوا في اماكنكم حتى أسمح لكم بالخروج.»

والتفت يتشاور مع الرجلين الآخرين، ودارت بينهم مناقشة قصيرة بعربية خشنة، ثم عاد يواجه المسافرين: «قريباً سننزل سلم النجاة الإنزلاقي، وستأتون إلى المقدمة واحداً بعد آخر بعد ان انادي اسماءكم فتنزلقون على السلم إلى أسفل ثم تركضون بعيداً عن الطائرة دون النظر إلى الخلف، عليكم ان تنفذوا هذه التعليمات حرفياً، فإذا أبدى أي منكم أي عصيان، فسنبدأ باطلاق الرصاص على الباقين في الطائرة.»

• • •

كانت ايرينا وجينا تتفرجان على فيلم قديم لدوريس داي في ذلك المساء عندما انقطع البرنامج فجأة لإذاعة ملحق اخباري.

توترت الفتاتان وقد شحب وجهاهما، وهمست ايرينا وهي ترتجف: «لقد حدث شيء.»

مدت جينا يدها تمسك بيد ايرينا بينما ابتدأ المذيع في الكلام، وما ان انتهى حتى انفجرت هذه بالبكاء وهي ترتجف، فوضعت جينا ذراعها حولها وقد اغرورقت عيناها هي الأخرى وهي تمتم بصوت أبح: «انها بخير فلا تبكي... لقد انتهى كل شيء... انها في أمان الآن... وستعود الينا قريباً جداً.»

أخذت ايرينا تردد: «لا استطيع تصديق ذلك، لا استطيع تصديق ذلك.»

أطلقت جينا ضحكة مرتجفة: «اعرف ما تعنينه، ولكنها الحقيقة، فالنساء والأولاد قد اطلق سراحهم جميعاً. ولا شك ان روز مع دانيال الآن، أليس هذا رائعاً؟»

فقالت ايرينا وهي تبكي وتضحك في وقت واحد: «رائع.»

وعندما هدأت، ذهبت جينا إلى المطبخ لتصنع لهما حليباً ساخناً ثم جلستا تشربانه أمام النافذة، ولكي تستطيع ايرينا ان تنام، اطفأت جينا المصابيح تاركة مصباح المنضدة، والذي كان يسبغ على الغرفة لوناً ورديا.

ثم قالت وهي تتكوم في زاوية الأريكة وتتثاءب: «بعد ان ننتهي من شرب هذا، يجب ان نصعد لننام.»

اخذت ايرينا ترشف الحليب وهي تنظر إلى شاشة التلفزيون مخفضة الصوت والتي كانت تعرض البرنامج الليلي المتأخر من موسيقى ومقابلات وتقارير اخبارية، وفيلم لوالت ديزني عن توم وجيري فضحكت حتى دمعت عيناها، ليس لأنه كان مضحكاً إلى هذا الحد وانما لأن ابتهاجها بنجاة شقيقتها جعل اعصابها من الإرهاق بحيث جعلها تسترسل في البكاء والضحك معاً.

نظرت إلى جينا لكي ترى ان كانت تضحك هي أيضاً، ولكن جينا كانت قد استغرقت في النوم ورأسها على ذراع الأريكة، ورأت فنجان الحليب مائلاً في يدها بشكل خطر، فقفزت تأخذه من يدها قبل أن يسقط، ولكن مع هذا لم تستيقظ جينا، وكانت ايرينا قد اخذت تسير على اطراف اصابعها عائدة إلى مقعدها عندما سمعت صوت جرس الباب الخافت الرنين.

اسرعت مجفلة إلى الباب الأمامي تنظر من خلال العدسة، وإذا بها ترى وجه نيكولاس يلوح امامها.

فتحت الباب بسرعة قبل ان يرن الجرس مرة أخرى، وكان يبدو عليها الشحوب والتعب، ورأت وقد تملكها شيء من الذهول، انه مصطحب معه استيبان سيباستيان، نظرت إليه متوترة الأعصاب، ثم عادت تنظر إلى نيكولاس والذي لم يخفها رغم مهابته البالغة، كما اخافها الرجل الآخر.

قال نيكولاس برقة وباللغة الاسبانية: «كيف حالك يا ايرينا؟»

فهمست تقول: «أحسن كثيراً بعد ان علمت أن روز بأمان.»

قال نيكولاس بعد ان تبادل مع استيبان النظرات: «هل رأيت ذلك على شاشة التلفزيون؟»

فأشرق وجه ايرينا بالابتسام وهي تدس اصابعها في شعرها الطويل البني اللون، وقالت: «نعم، ولكن ارجوك... أخفض من صوتك، فجينا نائمة وعلينا ألا نوقظها فهي متعبة جداً، تعاليا إلى المطبخ.»

سارت امامهما فسمعتهما يتحدثان معاً بصوت منخفض، ولكن عندما نظرت إلى الخلف سكتا وتبعاها، ولكن نيكولاس توقف في غرفة الجلوس وأخذ يحدق في جينا، والتي كانت متكورة كطفلة صغيرة في زاوية الأريكة وشعرها الذهبي المحمر يتألق في ضوء المصباح الوردي الخافت.

وما لبث ان لحق بايرينا واستيبان إلى المطبخ، وسألتهما ايرينا: «هل اقدم اليكما عصير الفواكه أم قهوة؟»

فقال نيكولاس: «قهوة، وشكراً لك.» جلس على كرسي واضعاً ساقاً على ساق، ثم اخذ ينظر إليها وهي تطحن القهوة في مطحنة كهربائية، كانت في باريس تصنع القهوة لها ولوالدها على الطريقة الفرنسية. فتطحن الحبوب في مطحنة خشبية صغيرة، ثم تحمصها على الموقد في محمصة كانت ملكاً لوالدة والدها والتي لم يشأ ان يبدلها بأخرى حديثة الطراز، وإبريق القهوة نفسه ينم عن سنوات طويلة من صنع القهوة فيه، وكانت رائحة كل فنجان عبقة بشكل غير عادي.

قال نيكولاس، والذي كان يحمل عدة نسخ من الصحيفة تحت إبطه: «رأينا النور في الشقة مضاء، فظننا انك قد تحبين رؤية نسخة من إصدار منتصف الليل.» ووضع النسخ على المنضدة فرأت في الصفحة الأولى صورة رمادية للطائرة المخطوفة، مرفقة بها صورة اصغر لروز بدت فيها صغيرة غلامية الشكل بشعرها القصير ووجهها النحيل.

التقطت نسخة ونظرت إلى الصورة، وعلى فمها ابتسامة مرتجفة: «ان عملك هذا هو شهامة كبرى منك.»

قال نيكولاس وقد بدت الرقة في عينيه: «انها قصة شخصية جداً، يا ايرينا ان روز واحدة منا... وسيدهشك ان تعلمي كم من الموظفين اخذوا يتأخرون في عملهم لكي يتابعوا اخبارها.»

نظرت ايرينا إلى استيبان تسأله: «هل كتبت أنت القصة هذه؟»

فضحك نيكولاس: «ان استيبان لا يكتب وإنما هو مدير

المبيعات، وقد جاء إلى هنا لأنه كان يتناول العشاء معي ومع بعض ذوي الأهمية من العملاء، وبعد ذلك ذهبنا إلى إدارة سنتنال لنحصل على هذه النسخ مباشرة من المطبعة قبل ان نأتي إلى هنا لأجل فنجان الليل.»

سألتهما بحيرة: «فنجان الليل؟»

فضحك الاثنان، وقال استيبان بالاسبانية ما جعلها تبتسم: «معنى هذا (آخر شراب).»

كان قد كدّرها عندما صاح بها وبدانيال في مطعم بيير، ليلة وصولها، وكانت مازالت تشعر بالغربة، ما جعل تصرفه العدائي ذاك نحوها يبعث الإضطراب في نفسها، ولكنه الآن يبدو مختلفاً، فقد اصبح وجهه اكثر دفئاً ولطفاً وأقل خشونة.

جهزت القهوة ووضعت ايرينا الفناجين وهي تسأل: «هل تسكن في هذه البناية، يا سيد كاسبيان؟» ثم تذكرت فجأة، فقالت: «ولكن كيف صعدت إلى هذا الطابق؟ لقد قالت جينا ان هناك مفتاحاً خاصاً لدواعي الأمان، إذ لن يتمكن احد أبداً من استعمال المصعد أو فتح باب سلالم الحريق، هناك مستأجر واحد فقط في هذا الطابق وهو يعيش في جزر كيمان.»

فقال: «لقد اشتريت الشقة منه، وأنا اسكن هنا الآن.»

نظرت اليه مجفلة: «وهل تعلم جينا بهذا؟»

أجاب وعيناه تلمعان ببريق النصر: «انها لم تعلم بعد، وسأخبرها طبعاً.»

أترى جينا سيسرها هذا الخبر؟ اخذت ايرينا تتساءل عن ذلك، ولكن كل ما قالته هو: «كان عليها ان تكون في السرير، ان الشعور بالذنب يتملكني إذ اتركها مستيقظة كل تلك المدة،

وخصوصاً بعد الليلة الماضية عندما بقينا مستيقظتين إلى ساعات متأخرة من الصباح، ولكنني لم احتمل ايقاظها لأطلب منها الذهاب إلى سريرها.» وابتسمت للرجلين، فتبادل هذين نظرة أخرى.

قال نيكولاس وهو ينهض واقفاً: «سآخذها أنا إلى سريرها الآن.»

فأخذت ايرينا تقول باحتجاج: «آه، لا اظن...»

لكنه كان قد خرج من المطبخ، وكانت تتبعه عندما قال لها استيبان بصوت جاد: «انتظري لحظة، يا ايرينا، ان هنالك شيئاً أريد ان اخبرك به.»

فنظرت اليه وقد باغتتها نبرة صوته هذه ما جعلها ترتجف لهاجس خطر لها، فسألته رافعة يدها إلى فمها: «وما هو؟»

أجاب بهدوء: «انهم لم يطلقوا سراحها، فقد علموا من جواز سفرها انها صحافية فقرروا انها قد تفيدهم بشيء، فاحتفظوا بها على متن الطائرة.»

فقالت وهي ترتجف: «آه... كلا...»

فقال يخفف عنها برقة بالغة: «يمكنك الآن، على الأقل ان تتأكدي من انهم لن يصيبوها بضرر، ويبدو أنهم يريدونها ان تكتب عنهم نوع المقالات التي يريدون رؤيته في الصحف، ولهذا سيعاملونها بشكل جيد، وحسب طبيعة روز، ربما سيسرها ان تبقى في الطائرة. ولو انها لم تكن تحب الأخطار والمواقف المثيرة لما سعت لأن تصبح مراسلة خارجية، فهي ابنة والدها والذي لو كان مكانها لرغب في البقاء على متن تلك الطائرة.»

وقفت ايرينا صامتة وقد شردت نظراتها. لم تكن تستطيع تكران ذلك لأنه كان صحيحاً، فقد كانت روز صورة عن والدها، وهي ايرينا، كانت تتساءل احياناً عما إذا كانت والدتها كذبت عليها، هل هي حقاً ابنة ديسموند؟ ثم تتذكر صورة والدة ديسموند والتي هي صورة أخرى لها.

تنهدت نعم انها ابنة ديسموند، وروز شقيقتها حقاً.

ثم عاد استيبان يقول بصوته العميق: «انني آسف لإحضاري لك هذا الخبر.»

فقالت له بصوت ميحوح: «ان اخبارك لي ذلك بمثل هذه اللباقة، هو شهامة منك... وأنا مسرورة لأنني لم اسمعه من التلفزيون، وإلا لكان صدمة قوية لي.»

حدق استيبان في وجهها الصغير، وقال: «انك فتاة شجاعة جداً.» فاحمر وجهها، بينما عاد هو يقول وعيناه السوداوان تتألقان: «لقد كنت كلمتك بخشونة بالغة في ذلك المساء في المطعم، وأنا بالغ الأسف لذلك فقد أسأت فهم الوضع تماماً... ذلك انني احب روز كثيراً لهذا ظننت دانيال خائناً لها، وانك حبيبته الجديدة، لقد كنت شديد الغضب حينذاك، ولكن ان اتحدث إلى صغيرة مثلك بتلك اللهجة، هو شيء لا يغتفر.»

فقالت ساخطة: «أنا لست صغيرة.»

فضحك استيبان وقد رقت أساريره وبان عليه الهزل، ثم قال مازحاً: «كلا بالطبع، وأنا آسف مرة أخرى، وآمل ألا يكون هناك دوماً ما اعتذر عنه.»

في هذه الأثناء، كان نيكولاس واقفاً بجانب الأريكة ينظر إلى جينا، والتي كانت مستغرقة في نوم عميق واجفانها

تتحرك، ما جعله يظنها تحلم، متمنياً لو بإمكانه ان يرى ما بداخل أفكارها، كان يراها غامضة بالنسبة إليه، ما يجعله مستعداً لدفع أي شيء في سبيل حل هذا اللغز.

انحنى يضع ذراعه تحتها ويحملها بخفة ورفق زائدين، ولكنها لم تستيقظ.

وقف لحظة ولكنها ما زالت لم تستيقظ، وهكذا سار ببطء شديد وعناية فائقة مجتازاً الممر حيث وقف في نهايته وهو يتساءل، اي من الغرفتين تخصها؟

ربما الكبرى منهما حيث انها صاحبة الشقة، وهكذا دخل اليها ليدرك من النظرة الأولى انه كان على حق، فقد كانت خزانة الثياب مفتوحة كاشفة عن صفوف من الأثواب، التي كان بعضها مألوفاً لديه، ولا بد ان ايرينا تستعمل الغرفة الأخرى.

وضع جينا على سريرها، وعندما مس جسمها الملاءات الباردة تأوهت وما لبثت ان فتحت عينيها تنظر إلى وجهه وما زالت شبه غافية، وكان هو مازال منحنياً عليها، مضت لحظة اخذا يحدقان فيها في بعضهما البعض، لقد كانت تحلم به وخيل اليها لثانية أو اثنتين، ان الحلم ما زال مستمراً، كان بإمكانها اثناء اليقظة، ان تكبح مشاعرها وتغلفها بالبرودة، ولكن اثناء النوم كان عقلها الباطن يستيقظ كاشفاً عن اعمق تلك المشاعر والغرائز، وكان حبها لنيكولاس أقوى من كل شعور آخر.

وافلتت آهة عميقة من بين شفتي نيكولاس وهو يتمتم: «جينا، آه يا جينا...»

وكان لصوته هذا وقع الصفعة على وجهها ايقظها من

شبه السبات الذي كان مسيطراً على وعيها، لقد فتحت الآن عينيها على اتساعهما وقد بدت الصدمة في عينيها، لم يكن هذا حلماً بل هو أمر واقع تماماً، ونيكولاس هنا في غرفة نومها، حقيقة لا خيالاً... فكيف حدث هذا؟

تذكرت انها كانت تشاهد التلفزيون مع ايرينا، وانها شعرت بالنعاس فنامت على الأريكة في غرفة الجلوس... ولكن كيف جاءت إلى غرفة نومها... ومن أين دخل نيكولاس؟

كان نيكولاس غافلاً عما تملك جينا من ذهول وحيرة، فقد كان مستغرقاً في مشاعره ما منعه من التفكير في أي شيء آخر.

ارتجفت جينا إزاء نظراته الجياشة بالمشاعر... وشعرت بخطورة ذلك... إذا هي لم تتخلص منه الآن فلن تتمكن من ذلك فيما بعد.

استجمعت قواها، وقبل ان يدرك هو ما تهدف إليه، كانت قد دفعته بعنف جعله يسقط على الأرض.

وفي المطبخ، سكت استيبان عن الكلام وهو ينظر حوله متسائلاً: «ما هذا؟»

كانت ايرينا قد هبت واقفة وقد شحب وجهها وتملكها التوتر: «هل نذهب ونرى ما هناك؟»

في غرفة النوم، كان نيكولاس قد عاد فوقف على قدميه وهو ينظر إلى جينا عابساً، والتي كانت جذبت ملاءة السرير إلى كتفيها.

وسألها: «ما الذي جعل تفعلين هذا؟»

فقالت: «اخرج من غرفتي.»

«ما الذي حدث لك؟»

«كنت نائمة، يا وغد، فاستيقظت واذا بك في غرفة نومي، حسناً، لم اعد نائمة الآن فاخرج من هنا، ان الأفعى خير منك.»

«هل لهذا فضلت الخروج من فيليب؟» فنظرت إليه ببرودة ولم تجب.

وأخذ هو يصرف بأسنانه: يا لعنادها هذا الذي يبعث على الجنون...

«حسناً، ليس ثمة موجب لمثل هذا العنف منك! ان الرضوض ستغطي جسمي غداً.»

فقالت بحدة: «هذا حسن.»

في تلك اللحظة كانت ايرينا تدفع الباب وتدخل ثم تقف عند العتبة: «هل... هل حدث شيء؟ لقد سمعنا صوت ارتطام.»

فقال يجيبها: «لقد اصطدمت بمصباح فوقع على الأرض، ولكنه لم ينكسر، ولكنني آسف إذ ايقظت جينا من النوم.»

قالت ايرينا وهي تنظر إلى الفتاة الأخرى باهتمام: «كم هذا مؤسف، يبدو عليك التعب أيضاً وربما لديك حرارة، اتمنى لو لم يكن عليّ ان اخبرك ولكنك ستعرفين بالأمر غداً، لقد احضرا لنا خبراً سيئاً، يا جينا، وهو ان روز لم تغادر الطائرة، انها ماتزال على متنها.»

• • •

وفي الطائرة كانت روز ماتزال مستيقظة وقد تكومت على مقعد في مقدمة الطائرة تحت مراقبة أصغر الارهابيين والذي كانت عيناه دائمتي التنقل بعصبية

بالغة. كان في الحراسة بينما كان القائد في قمرة الطيار، اما الثالث فكان يهوم غافياً، كانت ملامح الفتى الرقيقة يكسوها الضجر، وعيناه كثقبين اسودين، كما كان معظم المسافرين نائمين، فقد كانت هذه هي ليلتهم الثانية في الطائرة ما جعلهم يعدلون من وضعهم منذ مغادرة النساء والأطفال للطائرة، ولكن روز كانت من التوتر والألم بحيث لم تستطع الاسترخاء بشكل كافٍ، لقد جعلوها تنتقل إلى هذا المقعد الأمامي لكي يتمكنوا من مراقبتها بعد ان اكتشفوا انها صحافية، لقد أمضوا نصف ساعة في استجوابها ما ملأها ذعراً وخوفاً على حياتها. في أي صحيفة تعمل؟ هل هي صحافية سياسية؟ وما نوع الصحيفة التي تعمل فيها؟ ماذا كانت تفعل على متن الطائرة؟ وكانت روز تجيب بقدر امكانها من الهدوء، ولكن الخوف كان يتملكها فقد كانت تتوقع ان يطلقوا عليها الرصاص في أية لحظة.

وبعد ذلك اخذ القائد في القاء محاضرة مطولة جعلها تدونها... ذكر فيها مطالبهم واتهاماتهم وعقائدهم السياسية، وذلك في لغة قوية متدفقة ضخمة الألفاظ.

حاولت روز ان تبقي وجهها جامد الملامح ولكن ربما كشف شيء في وجهها عن أنها غير متأثرة بما يقول لأن القائد زمجر فجأة غاضباً ثم ضربها بالمسدس على وجهها.

كان شعورها بالألم من الحدة بحيث أغمي عليها، وعندما استفاقت، كان الرجال الثلاثة غير موجودين، فقد كانت اصواتهم تتصاعد من قرب قمرة الطيار.

وما لبث القائد ان عاد ليتحدث إلى الطيارين فكلف هؤلاء

المضيف بأن يقوم ببعض الاسعافات لوجهها، ثم سألها بعطف: «هل انت على ما يرام؟»

فردت عليه متمتمة: «سأعيش.»

عند ذلك صرخ بهما الفتى الصغير بحدة: «لا أريد همساً، هذا يكفي يا امرأة، عودي إلى مقعدك.»

ظل وجهها ينبض بالألم لعدة ساعات أخرى خف بعدها بشكل ما، كان بإمكانها ان ترى جانب وجهها في زجاج النافذة الداكن، كانت وجنتها متورمة قد خالط لونها الأحمر مع الازرق، وفكرت لاوية شفتيها، بأنها لم تعد جميلة وان من حسن الحظ ان دانيال ليس هنا فيراها.

لكن ما كان لها ان تفكر في دانيال، فقد كان هذا يوهن من قواها ويجعل عينيها تغرورقان بالدموع... نعم، ما كان لها ان تفكر في دانيال.

اغمضت عينيها واخذت تفكر في والدها بدلاً منه... أتراه في طريقه إلى فيتنام الآن؟ ثم فكرت في ايرينا المسكينة والتي لا بد انها الآن في لندن والقلق يفترسها، لا احد يعرف ما يحدث له بين يوم وليلة، فهذا كله الذي جرى كان اشبه بحادث سير، لقد كانت في رحلة عادية في الطائرة عندما..

رفعت رأسها وقد تملكها الدوار والإضطراب، واخذت تحدق في قائد الارهابيين وهو يخرج اليهم صارخاً بأوامره وهو يشتم. واستدار الإرهابي الفتى واخذ يحدق اليه وهو يرتجف بعنف، وسقط الارهابي النائم على الأرض ثم عاد فوقف، ومسدسه في يده وقد اخذ يطلق الرصاص.

حدثت أمور كثيرة في نفس الوقت ما جعلها لا تستطيع ان تفهم شيئاً مما حدث في تلك اللحظات، وعندما ركض

قائدهم عائداً إلى قمرة الطيار، سمعت صوت تحطيم زجاج في تلك القمرة تزامن مع امتلاء الجو بدخان لاذع صدر عن القاء قنابل دخانية.

وصدر صياح من مكان ما: «انبطحوا... انبطحوا على الأرض.» في نفس الوقت، لاح خلال الدخان جنود في بزات مموهة، وأيديهم ووجوههم مسودة واعينهم بيضاء لامعة بشكل غريب وعندما رأتهم روز ابتدأ صوت طلقات الرصاص تتصاعد.

كانت من الإضطراب والارتباك إزاء هذه الأحداث المفاجئة ما جعلها لا تفكر في الانبطاح على الأرض، ولم تدرك خطر ما هي معرضة له إلا بعد ان وجه القائد مسدسه اليها، وعندما اصابتها أول رصاصة، فتحت فمها لتصرخ ولكن صدمة الطلقة اخرستها قبل ان تلقيها الرصاصه الثانية ثم الثالثة إلى جانب ومن ثم إلى الأرض كدمية من الخرق حيث استلقت تنزف.

الفصل الخامس

تملك ايرينا الإضطراب وهي نائمة تتقلب من جانب لآخر بسبب أحلام غريبة راودتها وبدت الليلة وكأنها لن تنتهي ولكنها استيقظت على صباح انكليزي كانت تغاريد الطيور تملأ فيه الجو، ومن خلال الستائر، تسربت الأشعة الذهبية منعكسة على الجدران. بقيت مستلقية في سريرها تحدق حولها إلى ما يحيط بها من أشياء غير مألوفة، وما لبثت أن أخذت تتذكر ببطء كل ما حدث منذ وطأت قدماها أرض لندن. هل كان ذلك قبل أمس فقط؟ بدا لها وكأنها كان منذ أيام أو أسابيع.

ووخزها الألم فجأة... إن روز ما زالت على متن تلك الطائرة، وفي خطر بالغ. كانت ايرينا تعلم أنها ما كان بإمكانها أن تواجه الأخطار التي تواجهها روز، وارتجفت لهذه الفكرة، ثم عادت ورفعت رأسها تستمع وقد أدركت ما الذي أيقظها في هذه اللحظة. كان هناك من يقرع جرس الباب... كان رنيناً طويلاً متواصلاً... فنظرت إلى ساعة يدها والتي كانت ملقاة على المنضدة الجانبية للسرير. كانت السابعة والنصف. من تراه يأتي إليهم في هذه الساعة؟

سرى الذعر في كيانها... روز... لا بد أن شيئاً قد حدث لروز. وماذا يكون غير ذلك؟ وكادت تقع عن السرير وهي تقفز لتخطف معطفها المنزلي ثم تضعه على كتفيها بينما

تهرع خارجة من الغرفة نحو الردهة ومن ثم إلى الباب الخارجي.

وخرجت جينا من غرفتها هي الأخرى عندما مرت ايرينا بها. كانت هي أيضاً ترتدي معطفها المنزلي وقد شحب وجهها. وتلاقت أعينهما بقلق مشترك. ولكنهما لم تتكلما. وتبعتها ايرينا إلى الباب وفتحته.

كان إستيبان واقفاً عند العتبة وقد شحب وجهه وبان عليه الإرهاق. ورأت من ملامحه أنه أحضر خبراً سيئاً.

«إجلسي أولاً.» قال لها ذلك فازداد قلقها.

فهمست: «هل ماتت؟»

«كلا، كلا.» ووضع ذراعه حول كتفها يدفعها بقوة إلى غرفة الجلوس حيث اجلسها ثم انحنى أمامها يفرك يدها الباردة وكأنها طفلة، بينما كان يقول بصوت هادىء يطمئنها: «إهدإي يا ايرينا لا ترتجفي بهذا الشكل. إن روز لم تمت صدقيني...» سكت وهو ينظر إلى جينا التي كانت جلست بدورها وكأنها لم تعد تستطع الوقوف، ثم تابع يقول بخشونة: «حسناً، لقد قررت السلطة اقتحام الطائرة أثناء الليل حيث يفاجئون الإرهابيين على حين غرة وهم في أدنى حالات التيقظ.»

فصرخت ايرينا ذاهلة: «آه، كلا، كيف يتصرفون بهذا الشكل الطائش؟ لماذا لم ينتظروا ويستمروا في المفاوضات معهم حتى ينهكوهم؟»

«لا أدري، إذ من الصعب القول ما الذي كان ينبغي القيام به في مثل هذه الظروف. إننا لا نعلم كل الحقائق ولكنهم اتخذوا هذا القرار، وأثناء القتال أصيبت روز بالرصاص...»

أصبح وجه ايرينا كوجوه الموتى وهي تحملق فيه: «هل حالتها سيئة؟ يجب أن أذهب إليها... أريد أن أذهب إليها الآن لأكون معها.»

فهز إستيبان رأسه بسرعة: «كلا، يا ايرينا. لا يمكنك ذلك. من المستحيل عليك أن تذهبي إلى هناك. إن نيكولاس يعالج الأمور وهو في مكتبه الآن، فقد ذهب إلى هناك حالما اتصل به دانيال بعد اقتحام الطائرة مباشرة وسماعه بأن روز جريحة. إن نيكولاس يقوم بكل الترتيبات اللازمة لإحضارها إلى هنا بالطائرة وذلك حالما يمكنها السفر. وسيكون بإمكان دانيال أن يزودنا بآخر مستجدات الأخبار عندما يتصل بنا مرة أخرى. فقد تحدث معه نيكولاس هاتفياً منذ ساعة، وهو معها في المستشفى الآن. لم يجروا لها عملية بعد، ولكنني أخشى أن من الضروري إجراء ذلك لها. فهم ينقلون إليها دماً حالياً لتقويتها...»

«آه...» صدرت هذه الآهة عن ايرينا وهي تغمض عينيها وتتخيل ذلك. بدا هذا الأمر لها بالغ الخطورة بالرغم من محاولة استيبان التخفيف من ذلك.

أخذ إستيبان ينظر إليها مقطب الجبين.

«سيتصل بنا دانيال حالما يتغير الوضع من أي ناحية كانت. وقد سأله نيكولاس عما إذا كان عليك الذهاب إلى هناك، فقال دانيال كلا. فالفوضى هي السائدة حالياً ولن تسببي لهم سوى الإرتباك.»

أجفلت وهي تقول: «ولكن لي الحق بأن أكون هناك. إنها أختي.»

فقال لها برقة: «ايرينا، إنني أدرك تماماً مبلغ قلقك.

ولكنني أظن أن عليك أن تفعلي ما يقترحه دانيال. فهو في مكان الحدث، وبالتالي يعلم تماماً كيف تجري الأمور.»

نظرت إليه بعداء وعيناها تلتهبان: «لا تأمرني، وما شأنك أنت بكل هذا، على كل حال؟ ليس لروز علاقة بك فاهتم بشؤونك الخاصة. آه، لماذا لا تخرج من هنا؟»

وقف بقامته الفارعة وقد تحجرت ملامحه فجأة، ثم قال ببرودة: «لقد طلب مني نيكولاس أن أبلغك الخبر بنفسي بدلاً من أن تسمعيه من التلفزيون والآن، بعد أن انتهيت من هذه المهمة، فسأعود إلى مكتب نيكولاس. أظن أن عليك أن تذهبي إلى سريرك وتبقي فيه... وأنا واثق من أن السيدة تيريل ستطلب لك طبيباً يعطيك بعض المهدئات.»

نظرت إليه عابسة وهي تقول: «لا أريد العودة إلى سريري.»

فهز كتفيه: «هذا عائد إليك. فقد اعطيتك نصيحتي ولكنني لم أتوقع منك حقاً أن تتبعيها.»

استدار على عقبيه وخرج من الغرفة وما أن انصفق الباب الخارجي خلفه حتى انفجرت ايرينا باكية.

نظرت إليها جينا بأسى وهي تقول: «إن قدومه لإخبارك بما حدث هو شهامة بالغة منه، كما تعلمين. فهي ليست مهمة سهلة، مسكين هو.»

«أريد أن أذهب إلى روز، يا جينا. لا أستطيع احتمال البقاء هنا بينما هي مريضة وقد...» سكتت وهي تتنهد.

فتنهدت جينا هي أيضاً: «أعلم ما تشعرين به، ولكنني أظن الحق مع دانيال... فلن تكوني أنت سوى مشكلة أخرى له عليه أن يواجهها. فإذا كان نيكولاس ينوي استقدامها

إلى الوطن، فسيفعل ذلك في أقرب وقت مستطاع، فلا تقلقي.»

«إنني لن أعود إلى السرير أو أخدر نفسي حتى لا أعلم ما يجري.»

فابتسمت لها جينا تسري عنها: «وأنا أوافقك على هذا... فإن أسوأ الأمور بالنسبة إليك هو الجلوس والتفكير. فالعمل يساعدك على تحويل ذهنك عن القلق. تعالي معي إلى المكتب حيث سنسمع، على الأقل، كل ما يجد من أخبار قبل أن نحصل عليها من التلفزيون. لماذا لا تغتسلين وترتدين ثيابك بينما أجهز أنا الفطور؟»

«أنا لست جائعة.»

نظرت إليها جينا متأملة، ثم قالت: «لماذا أنت عنيدة بهذا الشكل؟ ولكن كان عليّ أن أكون معتادة على عناد أفراد أسرتك. فأنت وروز متشابهتان في العناد.»

ضحكت ايرينا عندئذ ما جعل من السهل إقناعها بالقيام بما طلبته منها جينا. فاغتسلت، وارتدت ثوباً صيفياً ذا لون وردي مزيج بالأبيض. وبينما كانت تسرح شعرها الطويل، ابتدأت نشرة الأخبار في التلفزيون وفي المقدمة أخبار الطائرة المخطوفة. كانت الشاشة مليئة بصور جمدت الدم في عروقها. الطائرة جاثمة على اسفلت المطار والدخان يتصاعد منها والجنود يصعدون السلم، وسيارة اسعاف وأجهزة الإطفاء يتصاعد عويلها في الانحاء، وآخر فيلم يظهر جثث الإرهابيين المغطاة بالملاءات وهم ينقلونها إذ يبدو أن جميعهم قتلوا.

قال المذيع بهدوء: «أما الركاب الجرحى فقد نقلوا جميعاً

إلى أقرب مستشفى للعلاج وبإمكان أقاربهم أن يتصلوا للسؤال عنهم على الأرقام التالية...»

أخذت ايرينا تبحث في حقيبة يدها عن قلم لتكتب الأرقام رغم أنها كانت تعلم أنها ستحصل على أخبار أكثر تفصيلاً من مكتب الشؤون الخارجية في الصحيفة سنتنال. وعندما انتهت الأخبار، أقفلت جهاز التلفزيون ثم ذهبت إلى المطبخ لاحقة بجينا والتي نظرت إليها متفحصة. كان ثوب ايرينا أنيقاً جميلاً، ولكنه أبرز شحوبها بعدم وضع زينة على وجهها هذا الصباح وكانت هناك هالات قاتمة تحت عينيها الكبيرتين. كان يجب عليها أن تأكل ولكن جينا لم تشأ أن ترغمها على ذلك. فكل ما كانت ايرينا بحاجة إليه هو التخفيف عنها وبعث الإطمئنان إلى نفسها، دون مناقشة. وهكذا سكبت لها شيئاً من القهوة ووضعت قشدة مع السكر ما جعل ايرينا تشربه دون وعي منها، على الأقل.

لم تتذكر جينا نيكولاس إلا بعد أن اتجهتا إلى المكتب، فقالت: «لا أدري كيف دخل نيكولاس إلى شقتي. أتراه قدم رشوة إلى الحارس؟ إذ أن الصعود إلى طابقي ممنوع دون رخصة مني. يجب أن أنظر في هذا الأمر.»

نظرت إليها ايرينا مجفلة: «ألم يخبرك نيكولاس؟ لقد قال إنه اشترى الشقة الأخرى الموجودة في طابقك.»

تشنج جسم جينا وشحب وجهها: «ماذا؟» وتسارع ذهنها إلى ما يعنيه هذا الخبر. ها إن نيكولاس قد غزاها في عقر دارها.

كانت تشعر بالأمان في شقتها العليا هذه خلف الأقفال حيث لا يوجد مستأجر في طابقها سوى رجل يبدو أنه لا

يأتي أبداً إلى لندن. فبإمكانها أن تقفل بابها مطمئنة إلى أنها وحدها لا يقتحم خلوتها أحد. ولكنها لم تعد كذلك الآن. فنيكولاس سيكون هنا يومياً، وأمام بابها مباشرة.

وشعرت بالعجز. فنيكولاس لا يستسلم. لقد ظلت تنسى طبيعته تلك، تنسى أنه رجل يلاحق الأمر حتى يفوز به. فهو لا يعترف أبداً بالفشل أو الهزيمة إلى أن يحصل على ما يريد.

كانت قد أصبح لديها فكرة ثابتة عن طبيعة نيكولاس وذلك حين أخلف وعده للرجل العجوز، محاولاً بذلك الفوز بالسيطرة على الصحيفة سنتنال من خلف ظهرها. لقد أصر نيكولاس على الفوز بما يريد وذلك بكل قسوة، جاعلاً كل شخص يقوم بما يريده، وهي من جملتهم... ولكن جينا أصرت على الوقوف في طريقه وبكل معنى الكلمة.

كانت تمر لحظات يتملكها فيها الشك في أن نيكولاس إنما يتظاهر بالإنجذاب إليها، ولكنها أدركت الآن أن ذلك كان صحيحاً. لم تصدق بأنه يحبها، فهي قد أصبحت واثقة من أنه لا يستطيع أن يحب سوى نفسه. ولكنه يرغب فيها فقط. لقد شعرت بالإحباط الذي أصابه الليلة الماضية.

كانت تتمنى أن تنساه، وذلك بالخروج مع فيليب سليد، ولكن ذلك لم يكن سوى إضاعة للوقت. صحيح أن فيليب كان شاباً ظريفاً، ولكنه لم يكن ناضجاً، فلقد كان فتى أنانياً مدللاً لم يكبر قط. ولكنها كانت أقسمت على أن تجعل نيكولاس يدفع ثمن موت السير جورج الذي تسبب هو به. فكانت بخروجها مع فيليب ترجو أن تثير غيرته على الأقل. ويبدو أن هذا ما حصل.

عندما وصلت مع ايرينا إلى مجمع باربري وارف دخلتا

إلى مكتب الحرس للتفتيش، حيث قال لها رئيسهم وهو ينظر إلى بطاقة إثبات شخصيتها: «آسف، يا سيدة تيريل، ولكننا تلقينا إنذاراً بوجود قنبلة، فقرعنا ناقوس الخطر. ربما كان ذلك مزاحاً، ولكن نظراً لما يحصل الآن في قبرص، وإطلاق الرصاص على زميلتنا روز إيميري بذلك الشكل، يجب علينا أن نتوخى الحذر.»

ابتسمت له جينا، قائلة: «هذا صحيح تماماً، يا سيد براون. إنك ما كنت لتقوم بوظيفتك كما يجب إذا لم تلتزم الإحتياط البالغ.»

فنظر إلى ايرينا وقد ضاقت عيناه: «لا أظننا رأيناك من قبل، يا آنسة.»

قالت جينا: «إنها أخت روز إيميري.»

فأخذ يحدق في ايرينا بعطف وشيء من الفضول: «مسرور بالتعرف إليك، يا آنسة. لقد صدمت حقاً عندما سمعت بإطلاق الرصاص على الآنسة روز، وآمل أن تصلنا عنها أخبار طيبة قريباً جداً.»

فقالت له ايرينا بصوت تخنقه المشاعر: «شكراً لك.»

كانت هي قد اتصلت برقم هاتف الطوارىء الذي عمم على شاشة التلفزيون وذلك قبل أن تترك الشقة مع جينا، ولكن لم يكن لديهم ما يخبرونها به ما عدا أن روز مرتاحة، وأنها قد تخضع لعملية جراحية. وقد ألقت عليهم ايرينا الكثير من الاسئلة ولكنها لم تحظ بأي جواب. حتى انهم لم يخبروها كم رصاصة استقرت في جسمها، وفي أي مكان منه.

سعل رجل الأمن ثم سألها: «ولكنني آسف إذ عليّ أن أرى بطاقة إثبات شخصيتك، فهذا مجرد رسميات إدارية وعلينا أن

نخضع للنظام حتى ولو كنا نعرف المرء شخصياً، يا آنسة.»

«لم أتزود بعد ببطاقة شخصية. إنما لديّ جواز سفري وبطاقة إثبات الشخصية الفرنسية...»

«بطاقة إثبات شخصية فرنسية.» كرر كلامها هذا بحيرة.

فقالت جينا: «إنها تعمل في فرنسا، عادة. فلا تقلق. إني أكفلها بنفسي، يا سيد براون.»

فقال حائراً: «حسناً، لا أدري...»

قالت جينا متهكمة: «أم لعلك تريد أن ينزل السيد كاسبيان بنفسه إلى هنا لكي يفعل ذلك؟»

قال السيد براون على الفور كما كانت تتوقع: «آه، هذا ليس ضرورياً.»

كل من يعمل في باربري وارف من أصغر عامل إلى أعلى مدير، كان يخاف من نيكولاس كاسبيان، ويكره التصادم معه. فقد تعلموا الخوف منه بسرعة بالغة، بعد أن عزل عدداً لا يحصى من الموظفين، وكان كل من يريد الاحتفاظ بوظيفته مستعداً لفعل أي شيء تقريباً لكي يدخل السرور إلى نفسه. وكانت جينا تفكر، عابسة، بأنها ربما الشخص الوحيد الذي يجرؤ على مخاصمته، مهما كانت الظروف، لكنها عادت فتذكرت أن ليس عليها أن تخاف منه إذ ليس بإمكانه عزلها من عملها.

وأضاف السيد براون بلهجة رسمية: «ولكن عليك من فضلك أن تجعليها تحصل على بطاقة إثبات الشخصية اليوم، إذا تكرمت.»

قالت جينا وهي تبتسم له ملاطفة: «سأفعل.»

تبعتها ايرينا إلى الردهة ذات الأرض الرخامية والمحتشدة بالناس الداخلين إلى المصاعد والخارجين

منها. وكانت ايرينا تنظر إلى كل هذا وقد بدا عدم الفهم في عينيها الزرقاوين الكبيرتين. رأت الأبواب الزجاجية مفتوحة في ناحية من الردهة، ومن خلالها رأت أزهاراً وأشعة شمس وساحة مكشوفة مبلطة.

قالت لها جينا تذكرها: «إنها ساحة بلازا حيث تناولت الطعام ليلة وصولك. هل تذكرت؟»

فأومأت ايرينا: «الساحة المكشوفة، حيث تناولنا الطعام أنا ودانيال.»

«أترين ستائر نوافذ مطعم بيير؟ هنالك تعشيتما أنت ودانيال.»

ولكن ذكرى تلك الليلة كانت بالغة التشوش في ذهن ايرينا لكثرة الأحداث التي مرت عليها منذ ذلك الحين. حتى انها لا تتذكر ماذا أكلا في ذلك العشاء، ولكن أمراً واحداً لم يفارق ذاكرتها... تلك العينان السوداوان العنيفتان اللتان كانتا تنظران إليها بازدراء.

إستيبان... كان هذا اسماً طالما أحبته فهو يعني استيفان باللغة الأسبانية. فيا له من اسم شاعري فهو يناسبه تماماً. فهو رجل ذو جانبية بالغة بالرغم من جو الكآبة الذي يحيط به، وما أحست به من غضب كامن في نفسه.

لقد سبب لها الحيرة في البداية، إلى أن انفجر باتهاماته، ولكنها ما زالت لا تفهم ما الذي جعله يظن أن بينها وبين دانيال علاقة، ولماذا تغضبه هذه الفكرة بهذا الشكل.

إن كل من يعرف دانيال وروز، يدرك مبلغ متانة العلاقة التي تربطهما معاً. وحيث أنه هو نفسه يعرفهما بشكل جيد، فقد كان غضبه ذاك غريباً، إلا إذا...

وعقدت ايرينا حاجبيها. أترى كان استيبان مفتوناً سراً بروز؟

ولأمر ما، تملكها الإنزعاج لهذه الفكرة... ولكن أي تفسير آخر يمكن أن يفسر غضبه تلك الليلة؟

كان رجلاً إسبانياً، بطبيعة الحال، وبالتالي بالغ الرزانة. وحتى في هذا الجيل، الرجل الإسباني شديد الاعتداد بكرامته كرجل. فهو ما زال متعلقاً بالفكرة القديمة عن الطريقة التي يتصرف فيها الرجل بالنسبة إلى الشرف والتقاليد واحترام العائلة. وايرينا لديها احترام وتعاطف مع هذه المواقف، فقد نشأت معها.

لقد تغيرت أمور كثيرة في أسبانيا، ولكن طريقة تفكير الرجال لا يمكن تغييرها بين يوم وليلة. وقد يكون إستيبان أخذ فكرة خاطئة عنها وعن دانيال لأن في أعماقه تكمن فكرة معيّنة عما تعني العلاقة بين رجل وامرأة. فرؤيته لدانيال مع امرأة أخرى في جلسة حميمة يمكن أن توحي إليه بسهولة بأنه يخون روز.

حسناً، إنه، على الأقل، قد أدرك خطأ شكوكه الحمقاء، تلك، واعتذر عنها بلباقة.

كانت هذه الأفكار تجول في ذهن ايرينا والغضب ما زال يتملكها.

هذا بينما كانت جينا مسترسلة في الحديث غير منتبهة إلى أن ايرينا لم تكن تستمع: «وهناك يوجد مقهى للأطعمة الخفيفة يدعى مطعم تروللي يمكنك أن تشتري منه أطعمة تأخذينها معك إلى أماكن أخرى، مثل الشطائر والسلطات والفاكهة. والسيدة تروللي هناك غالباً، أو ابنها روبرتو. وهما شخصان ودوان

جداً. ونحن، أحياناً، نشتري شيئاً من هذا ونذهب لنأكلها في حدائق رانكليف. ويمكنك أن تأخذي تاكسي من نورث ستريت كما أن هناك محطة باص في شارع سيلفر.»

نظرت جينا حولها وهي تقول لايرينا ضاحكة: «لابأس، سرعان ما تتعلمين كل شيء عن رواحك ومجيئك.»

وسارت نحو المصاعد تتبعها ايرينا، وبعد ذلك بلحظة كانا في طابق المدراء.

قالت جينا وهي تدفع باباً هناك تفتحه: «هوذا مكتبي.» وكانت فيه فتاة تقف بجانب نافذة واسعة تسقي بعض النباتات. فالتفتت باسمة وقد صبغت أشعة الشمس شعرها البني اللون ببريق ذهبي.

أحبتها ايرينا من أول نظرة، فقد كانت تنظر إلى الشخص بشكل مباشر، وكانت عيناها زرقاوين متألقتين وابتسامتها دافئة ودوداً.

«هذه ايرينا أخت روز، يا هيزل.» قالت روز هذا فأجفلت هيزل ونظرت إلى ايرينا بعطف، ثم قالت:

«لقد سمعت طبعاً أنك قادمة إلى هنا للعمل أثناء فصل الصيف مسكينة أنت إذ لم تكن بدايتك معنا سعيدة، أليس كذلك؟ إنني بالغة الأسف لما حدث لروز. ولكن دانيال اتصل منذ لحظة قائلاً إنها خرجت من غرفة العمليات، وأن أمل الأطباء كبير في شفائها. إنه خبر جيد، إليس كذلك؟»

حملقت ايرينا فيها وقد أخذ وجهها الشاحب يسترد لونه الطبيعي: «هذا رائع، آه، يا ليتني كنت هنا فاتكلم مع دانيال. هل ترك رقم الهاتف؟ هل بإمكاننا الاتصال به؟»

«آه، آسفة جداً، لقد قال دانيال ألا نحاول الاتصال به، فهذا

مستحيل حالياً، فالفوضى تسود المستشفى كما فهمت، وهو سيبقى هناك ليكون موجوداً عندما تستعيد روز وعيها. ولكنه قال إنه سيعود إلى الاتصال في غضون ساعتين، وقد ترك لك رسالة، وهي ألا تقلقي فهي في حالة جيدة وهو سيداوم على الاتصال بنا.»

تنهدت ايرينا: «آه، حسناً، عليّ أن أصبر، أليس كذلك؟»

فابتسمت لها هيزل تطمئنها: «هذا ما أظنه.»

التقطت ايرينا مجلة موضوعة على مكتب جينا وأخذت تحدق في الغلاف، والذي كان يظهر عروساً في ثوب الزفاف الطويل الأبيض، والطرحة الطويلة والإكليل المرصع باللآلىء والأزهار البرتقالية، كما كانت تحمل باقة كبيرة من الأزهار البيضاء.

«آه، مجلة عرائس. هل هناك من سيتزوج؟»

احمر وجه هيزل: «أنا، وذلك في خلال أسبوعين... أرجو أن تحضري العرس. إنه سيكون عرس مؤسسة كاسبيان الدولية لأن خطيبي يعمل في المؤسسة منذ سنوات، ولهذا قبل نيكولاس الدعوة. وجينا ستكون ضيفة الشرف. إننا نرجو أن تكون صحة روز جيدة لكي تكون إحدى وصيفات العروس حتى ولو جاءت على كرسي بعجلات. وستتعرفين على كل أصدقاء روز.»

«شكراً، سيسرني جداً حضور العرس.» قالت ايرينا هذا وقد تملكها التأثر والدهشة لهذه الدعوة من هذه الفتاة التي تعرفت إليها لتوها. كل شخص في لندن بدا لها ودوداً وأبلغ دليل على ذلك رعاية جينا لها بينما هما لا تكادان تعرفان بعضهما البعض.

فيما بعد، أخذتها جينا إلى مكتب شؤون الموظفين لتملأ

الأوراق الرسمية ومن ثم وبعد ذلك أرسلوها إلى حيث تؤخذ لها صورة لتضعها على بطاقة إثبات الشخصية وكان رئيس مكتب التصوير، تيم، في مكتبه، وقد غطت مكتبه صور غير ملونة، وهو يحركها بشكل عشوائي. كان رجلاً نحيف القامة طويلها، تعلوه كآبة، وفي حوالي الخمسين من العمر. ويرتدي قميصاً أسود وبنطلوناً رمادياً وسترة صوفية تصل إلى ركبتيه. ولم ينتبه إلى ايرينا إلا بعد أن نقرت على بابه المفتوح وقد تملكها الخجل. عند ذلك رفع بصره: «مرحباً، أدخلي. ما الذي استطيع القيام به لأجلك؟»

فقالت: «لقد أرسلوني إلى هنا لكي تؤخذ لي صورة.»

«لماذا ومن أرسلك؟»

«مكتب شؤون الموظفين، فأنا بحاجة إلى صورة لأجل بطاقة إثبات الشخصية.»

أطلق تيم لويد ضحكة قصيرة بان فيها الضيق: «إنك تمزحين، أليس كذلك؟ عودي إلى مكتب شؤون الموظفين واخبريهم بأن هذا القسم ليس هنا لأجل أخذ صور جوازات سفر تافهة. أخرجي إلى السوق أثناء فرصة غدائك وتصوري في محل تصوير عادي... الجميع يفعلون ذلك.»

تشوش ذهن ايرينا، فاستدارت لتخرج بعد أن لم تشأ مناقشة الموظف خوفاً من ألا تساعدها انكليزيتها على ذلك. وأخذ تيم ينظر إليها وهي خارجة، وإذا به فجأة، يناديها لأن تعود: «انتظري لحظة.» فاستدارت إليه متسائلة.

نظر إليها بإمعان، من الرأس إلى القدم، ثم نظر إلى الصور التي على مكتبه وهو يسألها متمتماً بذهن غائب: «ماذا قلت اسمك؟» وقبل أن تجيب تابع يقول: «لقد ابتدأت

العمل لتوك، أليس كذلك؟ ما اسمك، وفي أي قسم ستعملين؟»

أجابت: «إنني ايرينا اوليفيرو وقد ابتدأت العمل هذا النهار، وأنا سأعمل هنا في الترجمة ولفصل الصيف فقط.»

نظر إليها الرجل مفكراً: «هل أنت طالبة؟»

فأومأت إيجاباً، بينما شعرها البني الطويل يتماوج حول وجنتيها.

«من أين أنت، يا عزيزتي؟ من ايطاليا؟»

«إني أسبانية، ولكنني أتعلم في باريس.»

قالت ذلك بأدب وهي تنظر في ساعتها: «أرجو أن تعذرني إذ علي أن أعود إلى مكتب شؤون الموظفين لأخبرهم إن عليّ أن أخرج لاتصور.»

فابتسم تيم ملاطفاً وقد بدا عليه التملق فجأة: «لا بأس، يا عزيزتي، سأعاملك بشكل استثنائي. انتظري لحظة لاستدعي من يأخذ لك عدة صور.»

ونظر إلى خارج المكتب ثم نادى: «سيمون تعال هنا. إن لدي عملاً صغيراً لك.»

فظهر شاب حسن المظهر، ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين ويرتدي ملابس عصرية، فوقف على العتبة وهو ينظر إلى ايرينا باهتمام، ثم قال لتيم: «ماذا تريد؟»

«خذ لنا عدة صور لهذه الشابة، من فضلك يا سيمون. إن الاستديو الصغير غير مشغول فاستعمله.» وابتسم لأيرينا: «هل أنت مسرورة الآن، يا عزيزتي؟ إذهبي معه إذن.»

شكرته بأدب، ثم خرجت من المكتب يتبعها الشاب، ولكن تيم ناداهما فجأة: «دقيقة واحدة، يا سيمون. هل لي أن اكلمه على انفراد، يا آنسة؟ انتظري مكانك إذن.»

عاد الشاب الأشقر إليه في المكتب بينما انتظرت ايرينا خارجاً وهي تنظر حولها بشيء من الفضول. كانت متلهفة إلى الابتداء بالعمل هنا في سنتنال ولكنها رأت من الاقسام المختلفة، وتعرفت إلى العديد من الناس ما جعلها تشعر بتشوش وفوضى في التفكير، والمكان الوحيد الذي لم تره بعد هو قسم الترجمة حيث سيكون عملها.

عادت تنظر إلى مكتب مصور الصحيفة فرأت الرجلين يحدقان إليها. فأخذت تتساءل عما جعل ذلك الرجل يغير رأيه هذا. وما الذي يقوله لذلك الشاب، ثم لماذا يحدقان فيها هما الاثنين، بهذا الشكل؟

عاد إليها سيمون قائلاً وهو يجرها من ذراعها: «هيا بنا، ولنقم بالعمل. ما اسمك؟»

أجابت وهي تنظر إليه مفكرة: «ايرينا.»

«إنه اسم قديم الطراز لم اسمعه منذ سنوات... ولكنه يعجبني. كما أنه يلائمك، إذ لك مظهر قديم الطراز وخصوصاً في ثوبك هذا الباهت اللون غير الواضح المعالم والذي يظهرك أشبه بزهرة يواريها جدار، هذا يعجبني وقد يجعل الصور التي سنأخذها لك جميلة للغاية...»

شعرت ايرينا بارتباك وحيرة. ما الذي كان يتحدث عنه هذا؟ ألا يعلم أنها لا تريد سوى ثلاث نسخ من صورة للرأس والكتفين تصلح لبطاقة إثبات الشخصية؟ ألم يخبره رئيس مكتب التصوير بذلك؟

قالت: «علي أن أعود إلى المكتب بسرعة. إنهم لا يريدون سوى صورة الرأس والكتفين، ومن الضروري أن أكون

هناك في خلال ساعة.» كان دانيال سيتصل مرة أخرى في ذلك الوقت وكانت هي تريد أن تتحدث إليه... تريد أن تعلم مبلغ خطورة إصابة روز.

فقال سيمون: «آه، بكل تأكيد... لك ما تشائين يا عزيزتي.»

ولكن ايرينا شعرت بأنه لم يكن يستمع لما تقول.

هناك، في مكتب جينا، كانت هيزل تتكلم في الهاتف مع خطيبها بييت: «آسفة، يا عزيزي، فإن علي أن أذهب لأن مدير المبيعات قد دخل لتوه. نعم، إستيبان، نعم، سأقول له مرحباً عن لسانك. أخبره بماذا؟ آه، نعم. سأتحدث إليك فيما بعد، يا عزيزي إلى اللقاء.»

وضعت السماعة ثم استدارت بكرسيها لتواجه إستيبان: «ها سمعت؟ بييت يقول لك مرحباً، ويرجو أن تكون مستمتعاً بالعمل في لندن.»

«هذه مودة بالغة منه.» ومنحها إحدى ابتساماته الجادة. لم يكن قد قابل بييت إلا عدة مرات، ولكنه أحبه كأغلب الناس. فقد كان بييت حسن المعشر لين الجانب ما جعله محبوباً جداً، خاصة وأن عمله لا يدفعه إلى التنافس في مؤسسة مليئة بذوي الطموح.

قالت هيزل بزهو: «إنه شاب ودود جداً، آه، لقد قال أيضاً ان أخبرك أن كتابك الأخير أعجبه جداً. (كتاب سنتنال في الهندسة العالمية). لقد كانت صوره رائعة، كما أن المقالات أثارت استحسانه. إنك استكتبت أناساً بالغي الأهمية.»

فنظر إليها استيبان لاوياً شفتيه: «هذه لباقة منه إذ يقول هذا، ولكن الواقع هو أن فكرة الكتاب لا علاقة لها بي وإنما

هي من أفكار سلفي وهو الذي قام بتنفيذها. وعندما وصلت أنا، كان الكتاب قد انتهى ودفع إلى الطبع.»

نظرت إليه هيزل مفكرة. لقد كانت اعتادت أن ترى الناس لا يتوانون عن الإدعاء بمفخرة إنجاز عمل لم يقوموا به... أما ان يصر على تصحيح أمر كهذا فهو شيء نادر. امتلأت هيزل احتراماً لإستيبان وأدركت سبب إعجاب بييت به. وسألته: «كيف يسير بيع الكتاب؟»

«بيع الكتاب يبدو حسناً بالنسبة إلى بيع كتب سنتنال العالمية الأخرى. إن كتاب الأطلس التاريخي نفذت نسخه بسرعة، كما تعلمين. وكذلك الأطلس الأوروبي. وقد علمت من مصدر موثوق به أنه مطلوب من مختلف أنحار العالم.»

فقالت هيزل تعترف: «ولكنه يبدو لي جافاً للغاية.»

ابتسم لها فجأة: «إنه ليس كتاباً مسلياً إذن؟»

قالت ضاحكة: «كلا، إنه ليس كذلك سمعت أنك أحدثت تغييراً كبيراً في طريقة تسويق المبيعات.»

«كان عليّ أن استغني عن بعض الموظفين، سائراً على خطة السيد كاسبيان، كما أننا نقوم بتنفيذ بعض المشروعات الجديدة مثل تقويم سنتنال.» كان صوت إستيبان، وهو يقول ذلك، بارداً فاتراً ما جعل هيزل تحس أنه لا يستحسن ذلك التقويم.

«آه، (فتيات سنتنال)؟ لا أظنني أحب هذه الفكرة فهي ستجعل السير جورج يتحرك في قبره.» وإذ تحركت في كرسيها، إصطدم كوعها بمجلة العرائس فوقعت على الأرض. وانحنى استيبان يلتقطها ثم ينظر إليها باسماً: «متى سيعود بييت إلى لندن لأجل حفلة الزفاف؟»

فتنهدت هيزل: «ليس قبل أسبوعين، فهو ما زال مشغولاً بمشروع أتريشت... وهو مبنى مؤسسة كاسبيان العالمية للطباعة فهو المسؤول عنه ولا يمكنه تركه الآن.»

فقال إستيبان مجاملاً: «إننا سنفتقدك في هذا المكتب.»

«ولكنني لن أذهب إلى أي مكان.»

«ولكن... ماذا ستفعلان أنت وبييت بعد أن تتزوجا؟»

«سأبقى هنا لفترة، على الأقل. وسأذهب إليه حيث يعمل وذلك أثناء عطلات آخر الأسبوع فقط.»

حدق إستيبان إليها عابساً: «مثل هذا النوع من الترتيبات لا يصلح، يا هيزل، إسمعي كلامي. فالزواج ليس أمراً سهلاً في أفضل الأحوال، ولكن إذا أردته أن ينجح عليكما أن تكونا معاً على الدوام، وإلا فستعرضين زواجك للتحطم...»

سكت فجأة وقد قطب جبينه، فأخذت تحدق إليه بفضول. كانت لا تكاد تعرف هذا الرجل، ولكنها كانت تحس بأنه يتكلم عن نفسه. هل كان متزوجاً فتحطم زواجه لأنه ترك زوجته خلفه في أسبانيا؟ لقد كان ثمة همس يدور بأنه متزوج ولكنه لم يحضر زوجته معه، كما أن لا أحد يعرف شيئاً عنه. فهو ليس من السهل معرفته... إذ كان إنطوائياً بعض الشيء رغم وسامته البالغة بالنسبة لطابع سكان شواطىء البحر المتوسط. الشعر الأسود المصقول والبشرة السمراء والعينان القاتمتا اللون.

نظر إستيبان إلى ساعة الجدار فتابعت هي نظرته تلك وقد قطبت جبينها: «إن الوقت يمر. ولا أدري ما حدث لإيرينا، فقد ذهبت لتتصور لأجل بطاقة إثبات الشخصية،

ولكن عليها أن تكون هنا الآن، لأن دانيال سيتصل ليخبرنا عن آخر أخبار روز، وذلك في منتصف النهار. الساعة الآن الثانية عشرة إلا عشر دقائق. سأرى إن كنت أستطيع العثور عليها، إذ يجب ألا تفوتها مخابرة دانيال.»

قالت هيزل: «لا حاجة بك لأن تذهب بنفسك، فسأتصل أنا بمكتب التصوير وأذكرها بالموعد.» ولكنها كانت تتحدث إلى الفراغ إذ كان إستيبان قد خرج قبل أن تبدأ الحديث.

عندما خرج من المصعد، إذا به يصطدم بفاليري نايت والتي ابتسمت له مسرورة: «مرحبا يا إستيبان. لم أرك منذ أيام... هل كنت مشغولاً؟»

قال وهو يستدير ليسرع إلى مكتب التصوير: «جداً.»

لكنها قالت ضاحكة العينين: «مشغول بتقويم سنتنال؟»

أومأ إستيبان باختصار، فألقت عليه نظرة ماكرة: «أتعلم أن هناك شخصاً هدد بأن يرسل صورة لي بثوب السباحة البيكيني، ولكنني أخبرته بأن ذلك ضد قانون الصحيفة حيث انني أعمل فيها.»

«نعم، هذا صحيح مع الأسف.» قال ذلك فأسبلت أهدابها تنظر إليه من خلالها.

«لا أظنهم كانوا سيستعملونها على كل حال.» وضحك فجأة: «والآن، يا فاليري، أنت تعلمين أنهم في مكتب التصوير يحبون أن ينشروا صورتك بثوب السباحة، فهذا يزيد من بيع الصحيفة.»

«إنك تمدحني بذلك.» قالت هذا وهي تضحك بنعومة وقد تملكها السرور لهذا المديح الذي طال انتظارها له منه.

أخذ إستيبان يتأملها مفكراً في أن من المؤسف أنهم لن

يمكنهم استغلالها، فقد كانت أكثر جانبية من أي من الفتيات التي أخذوا صورهن حتى الآن.

لكن الوقت كان يمر بسرعة. فنظر في ساعته ثم عبس وهو يقول: «آسف، أنا مستعجل...»

نظرت إليه ذاهلة وهو يسرع مبتعداً. لقد أفلت منها مرة أخرى، وذلك في اللحظة التي توقعت فيها أن يدعوها إلى العشاء. لقد كان رجلاً مثيراً للغيظ حقاً.

كان اجتماع لرؤساء الأقسام قد انفض لتوه، وخرج المجتمعون أزواجاً وأفراداً يتحدثون إلى بعضهم البعض أثناء سيرهم وهم ما زالوا مستغرقين في المناقشات التي استغرقتهم طوال الساعة الماضية، وذلك في موضوع رغبة نيكولاس في تغيير صورة الصحيفة سنتنال التي دامت سنين طوالاً، وتحديثها لكي تصبح أكثر شعبية.

لم يبق جالساً إلى المائدة المستطيلة اللامعة سوى نيكولاس وجينا، حيث كانا يجمعان اكوام المستندات وقد اشتبكا مرة أخرى أثناء الاجتماع بسبب خطة نيكولاس تلك. فقد كانت جينا تكره أي تغيير في سنتنال. وكانت الآن متوهجة الوجه بالغة الضيق.

سألها نيكولاس فجأة عندما وقفت تتأهب للذهاب: «هل فكرت مرة أخرى في تلك الرحلة؟»

فقالت بحدة: «إن لدي أشياء أخرى تشغل ذهني، ليس بإمكاني التفكير في شيء وروز في حالة خطرة.»

مال نيكولاس برأسه وهو يقول: «نعم، لقد كان ذلك الوقت مقلقاً تماماً، ولكنه مر وانتهى الآن، فروز كوالدها، قوية الجسم وستكون على ما يرام.»

نظرت إليه وقد فرغ صبرها: «يا ليتني واثقة من ذلك مثلك. إنني في أشد اللهفة لمعرفة آخر أخبار دانيال... والتي سيخبرنا بها عند الظهر. يجب أن أعود إلى المكتب لأجل ذلك.»

تبعها نيكولاس نحو الباب وهو يتمتم: «جينا، أريدك أن تأتي في هذه الرحلة. إنها ستساعدك على الحصول على فكرة واضحة عن عمل مؤسسة كاسبيان الدولية عن طريقة تفكيرنا كمؤسسة.»

فقالت بغضب: «لقد سبق لي أن كوّنت فكرة واضحة تماماً عن طريقة تفكيرك. لقد اوضحته في هذا الإجتماع، هل تعلم ما كان سيقوله السير جورج لو أنه كان حاضراً معنا؟ كان سيقول إنك تحول ما كانت صحيفة مستقيمة جادة إلى أخرى صغيرة الحجم تافهة مليئة بالرسوم الملونة دون أن تهتم بسوقيتها وابتذالها ما دامت تبيع ملايين النسخ.»

رد عليها بصبر فارغ: «إن بيع ملايين النسخ ليس أمراً مبتذلاً، يا جينا. فنحن نعمل لنمنح القراء ما يحبونه.»

«مثل الصور الفاضحة للفتيات؟»

قال بابتسامة ساخرة: «إنها ليست صوراً فاضحة بل فنيّة.»

اوضحت بازدراء: «بل ابتذال تحت اسم فني.»

«لا تكوني متزمتة إلى هذا الحد. إن ما تصفينه بذلك يمكنك رؤيته في أي شاطىء للسباحة في الصيف.»

فقالت بغضب: «ذلك أمر مختلف.»

«لماذا؟»

فقالت: «لأن... لأن السير جورج سيكره ما ستفعله.»

«لم يكن السير جورج على صلة بما تقوم به الصحف

العصرية، ولكن له عذره، فقد كان رجلاً عجوزاً بينما أنت فتاة شابة، وأمامك الوقت للتعلّم.»

أجابته بحدة وقد توهج وجهها: «لا أريد أن أتعلم طريقتك في التفكير.» وعندما رأت عينيه تلمعان تملكها السرور إذ مست بقولها هذا شيئاً من زهوه بنفسه.

فقال بحدة: «حسناً، إذا أردت أن تفهمي عمل الصحافة العصرية فستكتشفين المزيد عن مؤسسة كاسبيان الدولية. وأنا أريدك في كاليفورنيا في هذه الرحلة، فقد حان الوقت لكي، إما أن تأتي، وإما أن تعترفي بأنك غير مهتمة بالشركة فتتخلين عن مقعدك في مجلس الإدارة.»

استقام جسمها وهي ترى نظرة التحدي الغاضبة في عينيه. وبعد لحظة، هزت كتفيها قائلة: «حسناً جداً. سأذهب إذا كنت مصراً.» رأت في عينيه نظرة الظفر قبل أن يحولهما بعيداً، وقد بان عليه شيء من الارتياح وهو يقول بشكل عفوي: «هذا حسن. آه، يجب أن تتعرفي إلى أمي أثناء وجودنا في كاليفورنيا.»

نظرت إليه مجفلة، وبدت البرودة في صوتها وهي تقول: «أتعرف إلى أمك؟»

جرحت لهجتها كرامته، فعاد الغضب يتملكه: «إذا لم تحبي التعرف إليها، فانسي إنني عرضت عليك ذلك.»

قبل أن تقول له شيئاً آخر، كان قد ذهب مبتعداً بسرعة فائقة. وشعرت هي وكأنها ستنفجر باكية. وفيما بعد، أصبح نيكولاس بغموض البركان... ما أن يبدو آمنا هادئاً لحظة، حتى ينفجر غضباً بعدها دون سبب فكان عليها أن تفكر في كل كلمة تقولها له.

عقدت حاجبيها وهي تفكر في هذا الأمر أترى ثمة شيء سيء بالنسبة إلى نيكولاس؟ أم في مؤسسته؟ ليس من عادته مثل هذا التقلب ولا بد أن هناك سبباً يجعله حساساً بهذا الشكل.

• • •

في المستشفى في قبرص، كان دانيال جالساً بجانب سرير روز رغم أنها كانت فاقدة الوعي غير شاعرة بوجوده. كان وجهها شاحباً كالموتى رغم أنهم نقلوا إليها دماً مرتين منذ إحضارها إلى المستشفى. لقد أعطاها دانيال مرة من دمه وقد تملكه سرور بالغ أن تبين أن فصيلة دمه مطابقة لفصيلة دمها.

أراد أن يعطيها من دمه للمرة الثانية ولكن الأطباء رفضوا هذا لأنه من الخطر عليه منح دمه مرتين في خلال أربع وعشرين ساعة. ورغم احتجاجه بأن صحته جيدة... فقد بقوا على عنادهم، واحضروا لها دماً من مصدر آخر.

كان يتأملها بإمعان، بعينين مثقلتين متعبتين لعدم النوم، فهو لم ينم منذ وصوله من لندن رغم عدم وعيه إلى ما يحس به من إرهاق. فقد كان اهتمامه مسمراً على روز التي اعتادت أن تكون ممتلئة حيوية واندفاعاً وطاقة، ولكنه، في هذا السرير، يراها ضئيلة هشة بعظامها الرقيقة ويديها وقدميها الصغيرة، فوزنها لا يكاد يزيد عن وزن طفلة، ولكنها، بالنسبة إليه، كانت أجمل شيء رآه في حياته. فهي زهرة الدنيا.

كان من الصعب التصديق بأن فتاة بمثل هذه الرهافة

والرقة، استطاعت مواجهة محنة تلك الساعات الطويلة في الطائرة. ولكن دانيال كان سمع من بعض الركاب الذين لم يصابوا بضرر، سمع كيف واجهت روز الإرهابيين، وكيف تحدثت معهم بالفرنسية وكتبت ما أرادوها أن تكتبه، وقد بدا عليها الهدوء وعدم الخوف حتى في مواجهة التهديد الغاضب.

دوماً كان الخوف يتملك دانيال من أن يحدث لها شيء كهذا. فقد كانت دوماً مهووسة بالتمثل بوالدها، وأن تصبح ديسموند ايميري آخر الذي كان يذهب إلى الأماكن الخطرة التي لا يجرؤ على الذهاب إليها شخص آخر، مغامراً في سبيل ذلك بحياته. كان ديسموند رجلاً خارقاً، فهذا لا يستطيع أحد نكرانه، وخصوصاً دانيال الذي طالما احترمه وقدره. ولكن عندما تهدد شخصية ديسموند ايميري أمن روز، فإن دانيال لا بد أن يكرهه إلى حد محاربته، أو بالأحرى محاربة الصورة التي خلفها في ذهن روز... ونكراه وتملكه لحبها. ولكن ديسموند نفسه، كما يعرف دانيال، لم يكن يريد قط أن تحذو روز حذوه، رغم أنه لم يظهر لها عدم تشجيعه على ذلك. لأنه لم يكن يحب التدخل في ما ترغب فيه ابنته، إلا أنه كان دوماً يفضل لها عملاً آخر كما طالما قال. كلا... كان ما على دانيال أن يقاومه هو تأثير شخصية ديسموند على ابنته.

جاءت ممرضة إلى جانبه، وقالت له برقة: «كنت طلبت مني أن أذكرك عندما يحين وقت مخابرتك إلى لندن.»

أوماً وهو ينهض واقفاً، تاركاً يد روز المسترخية، وبقي واقفاً ينظر إلى عينيها المسبلتين.

أخذت الممرضة تنظر إليه بعطف، وهي تطمئنه بقولها: «إنها لن تستفيق من غيبوبتها قبل ساعات.»

فقال: «أعلم ذلك.» ولكنه بقي متردداً في تركها حتى لمثل هذه الفترة القصيرة. لم يكن قد تصور قط مبلغ حبه لها إلا بعد أن ظن أنه قد يفقدها.

ابتسمت له الممرضة، مستحسنة مشاعره هذه نحو حبيبته، وقالت: «إنها ستصبح على ما يرام. سيأخذ هذا وقتاً، ولكنها ستصبح على مايرام.»

منحها ابتسامة جذابة وقد تأثر بعطفها: «متى سيمكنها أن تتزوج؟»

«الأسبوع القادم.»

قالت له ذلك وهي تتصور لو أنها كانت مكان روز في هذا السرير لارغمت نفسها على النهوض والزواج منه حتى ولو كانت تموت.

• • •

إستغرق وصول استيبان إلى حيث ايرينا، بعض الوقت ولكنه اكتشف أخيراً أن الستديو الصغير كان ملحقاً بمكتب إخراج الصور، فدخل في نفس الوقت الذي كان فيه المصور مشغولاً بتنظيم جلوس ايرينا ذات الملامح الحائرة المشوشة، على المنبر، متكئة على شجرة لوز اصطناعية مزدهرة.

كان المصور يقول لها: «هل يمكننا أن نزيح تنورتك قليلاً فقط؟ إننا نريد أن نظهر جمال ساقيك، فهذه التنورة طويلة جداً. كما أن علينا أن نفتح عدداً من هذه الأزرار... والآن، يا عزيزتي، لا تكوني حمقاء.» قال سيمون ذلك عندما ضربت

ايرينا يديه تبعدهما عنها، وتابع يقول: «إن من يرانا يظنني سأغتصبك.» وضحك، ولكنها لم تضحك.

لقد كانت نسيت لغتها الانكليزية، فأخذت تتكلم بغضب بالأسبانية وقد توهج وجهها وبان عليه الانزعاج بعد نصف ساعة إزداد اثناءها إدراكها بأنه لا يحاول أخذ تلك الصورة لها والتي طلبتها منه.

دخل إستيبان اثناء هذا المشهد وقد بان الغضب والخشونة على وجهه، وتقدم رأساً نحوهما سائلاً بالإنكليزية: «ما الذي يجري هنا؟»

فرد عليه سيمون، وهو يلتفت ليحدق في هذا الغريب الذي قطع عليه عمله، رد عليه بحدة قائلاً: «كيف دخلت إلى هنا؟ ألا تستطيع قراءة الإشارة المكتوب عليها (ممنوع الدخول)؟»

«إنني مدير التسويق ولست بحاجة إلى إذن خاص للدخول إلى هنا.» انفجر استيبان بهذا القول وقد بدا الوعيد في عينيه وهما تتلاقيان بعيني هذا الرجل.

ترك سيمون ايرينا مرغماً نفسه على ابتسامة إرضاء لإستيبان وهو يقول له: «آه، يا سيدي... آسف إذ لم أعرفك.» لم يكن يريد طبعاً أن يسيء إلى رجل بأهمية مدير التسويق والذي يسيطر على هذا المشروع بأكمله ويمكنه أن يفصل سيمون من عمله.

أمسك استيبان بيد ايرينا يجرها وهو يهزها قليلاً وكأنه من الغضب منها بحيث يتمنى لو يصفعها.

«قد يتصل دانيال الآن في أية لحظة فعليك أن تذهبي إلى مكتب السيدة جينا تيريل.» واندفع بها نحو الباب، بينما

لحق سيمون بهما محتجاً: «ولكننا لم ننه بعد أخذ الصورة، يا سيدي...»

قال له إستيبان موجهاً إليه نظرة أسكتته: «بل أنهيت ذلك.» بينما وجدت ايرينا نفسها تندفع إلى خارج الاستديو مجتازة الممر نحو المصعد.

أرادت أن تتخلص من يد إستيبان الخشنة، ولكنه رفض أن يتركها. وضغط زر المصعد محولاً وجهه عنها، بينما أخذت هي تنظر إليه جانبياً وقد تملكها التوتر.

«أشكرك لأجل...» وسكتت وهي ترى الغضب في عينيه.

«كيف سمحت له بأن يضع يده عليك؟»

قالت محتجة: «أنا؟ أنا لم أسمح...»

«لا تكذبي علي، فقد رأيت ما الذي كان يجري حين دخلت... كانت يداه على جسمك.»

ونظر إلى القسم الأعلى من ثوبها بإزدراء بالغ: «واقفلي أزرار ثوبك هذه قبل أن يراها أحد.»

كان وجه ايرينا يتوهج وأصابعها ترتجف وهي تحاول قفل أزرار ثوبها محنية رأسها. شعرت بالرغبة في البكاء ولكن ليس وإستيبان يرمقها بكل ذلك الغضب والاحتقار.

وصل المصعد فترك إستيبان مرفقها دافعاً إياها إلى داخله وكأن من المحتمل أن تهرب، وكانت ما تزال تتعثر بإقفال أزرار ثوبها بينما الباب ينغلق وإذا به يزيح يديها فجأة ويقفل لها الأزرار بنفسه.

لم تستطع أن تنظر إليه وبقيت خافضة بصرها وأهدابها مسدلة على وجنتيها.

ثم قال لها بخشونة: «أظنك في السن التي تحبين فيها أن

تجربي كل شيء، ولكنك بهذا العمل قد توقعين نفسك في متاعب خصوصاً مع الانتهازيين أمثال ذلك الرجل.»

«كنت أريد فقط...» ابتدأت تقول بصوت خافت.... محاولة أن توضح له أنها ذهبت إلى هناك لكي يأخذ لها صورة سريعة للبطاقة الشخصية، ولكن إستيبان لم يدعها تنهي حديثها، إذ قال بخشونة: «إنني أعلم ما كنت تريدينه.»

عند ذلك وقف المصعد وانفتح بابه، فخرج منه مبتعداً دون أن يلقي عليها نظرة فسارت متعثرة وهي ترتجف وقد تملكها الدوار، متجهة الى مكتب جينا بينما توارى استيبان عن الانظار.

نظرت إليها جينا وهيزل مجفلتين وهي تفتح الباب، ثم ابتسمتا: «هل أخذت لك الصورة؟»

أجابت بصوت مبحوح: «كلا، في الواقع...» ولكن قبل أن تتابع كلامها، رن جرس الهاتف.

صرخت جينا وهي تخطف السماعة وقد أشرق وجهها: «إنه دانيال.» وجعلتها لهفتها لسماع أخبار روز تنسى كل شيء.

الفصل السادس

عندما فتحت روز عينيها كان أول ما وقع عليه بصرها دانيال مستغرقاً في النوم بجانب فراشها، وقد اسند رأسه إلى مسند كرسي أبعد ما يكون عن الإراحة.

عادت روز تغلق عينيها على الفور متصورة انها تصورات كما كان يحدث لها على متن الطائرة كلما كانت تفكر في دانيال، ما كان يجعلها تبكي.

ولكن هنالك شيء مختلف، هل ما زالت في الطائرة؟

كان آخر شيء تتذكره هو... وقطبت جبينها فآلمها تحريك حاجبيها، كانت تشعر بصداع بالغ كان الألم فيه ينبض كالطبل، لم تشأ ان تفكر خوفاً مما قد تذكره، فقد كان رأسها يدوي بأصوات مخيفة... طلقات رصاص، صراخ، صياح تحطم زجاج...

كان هناك اطلاق رصاص. وارتجف جسدها محاكياً ذكرى ذلك الصوت المرعب، نعم، ذلك كان ما حدث، لقد اطلقوا الرصاص عليها، ومرة بعد أخرى شعرت بالرصاصة تصيبها فيندفع جسمها إلى الخلف من تأثير الصدمة، وتملكها الخوف والذعر، وتعالت نبضات قلبها تكاد تصمها.

عليها ان تتوقف عن التفكير في هذه الأشياء المرعبة... عليها ان تسيطر على نفسها، جمدت في فراشها مغمضة العينين وهي تستمع، أين هي؟ اخذ ذهنها يستوعب حركة المستشفى، خشخشة العربات، صفق الأبواب، وقع خطوات

الممرضات، صوت سعال شخص، صوت رنين هاتف بعيد.

مثل هذه الأصوات العادية الآمنة الرائعة، جعلت قلبها يخفق، فتحت عينيها فلم تجد نفسها على الطائرة الجاثمة في المطار، لم تكن هناك ودمها ينزف... بل كانت في سرير في مستشفى ودانيال بجانبها... نعم، دانيال بلحمه ودمه.

حدقت إليه بذهول وهي ترتجف، كان دانيال بجانبها مباشرة... كان قريباً منها إلى حد تستطيع لمسه... ولكنه لم يكن منتبهاً اليها لأنه كان نائماً وقد فتح فمه واخذ يتنفس بصعوبة.

همست خوفاً من ان توقظه: «آه، يا حبيبي.» واخذت تنظر اليه بسعادة بالغة، كما كانت تتصور انها ستنظر إليه عندما تراه مرة أخرى، كان الأمر رائعاً، كان نائماً مسترخياً كصبي صغير، وشعرت في هذه اللحظة بالحب له اكثر مما شعرت في حياتها قط من قبل.

اخذت عيناها تنظران إليه وقد فاضت مشاعرها، وجهه، كتفاه العريضتان، صدره شعرت وكأنها كانت متلهفة لرؤيته منذ سنوات وها هوذا الآن هنا، بينما هو لا يدري بوجودها، ويمكنها ان تنظر إليه كما تشاء.

وعادت تهمس: «آه، يا حبيبي.»

ربما كان سمع همسها هذا لأنه تحرك قليلاً وفتح عينيه، ثم تثاءب واستقام جالساً في كرسيه وأغلق فمه.

وعند ذلك رأى روز، اخذا لحظة يحدقان الواحد في عيني الآخر بصمت، ثم منحته ابتسامة صغيرة مرتجفة فتأوه قائلاً: «روز.»

«دانيال.» قالت ذلك ومشاعرها تكاد تخنقها.

بدا وكأنه مرتبط اللسان قبل ان يقول: «إذن فقد استيقظت أخيراً.»

فأومأت تقول: «هل نمت وقتاً طويلاً؟»

«الأميرة النائمة لا شيء بالنسبة اليك.»

فاتسعت ابتسامتها: «ألم يوقظها الأمير الفاتن؟»

انقلبت على جنبها نحوه وإذا بها تصيح من الألم.

سألها شاحب الوجه وقد بان القلق في عينيه: «هل يؤلمك كتفك يا حبيبتي؟»

قالت ومازالت تنتفض من الألم: «هذا لا يهم.» وابتسمت له، ثم خفضت بصرها تنظر إلى اصابتها فرأت الضماد على ذراعها، وكتفها مربوطاً على صدرها، فقالت بخفة: «يا له من أمر مأساوي، هل أجروا لي عملية؟»

فأومأ قائلاً: «نعم، الليلة الماضية، لقد أخرجوا من جسمك ثلاث رصاصات وخاطوا مكانها.»

لكن الرصاصات لم تكن قاتلة، فأنا لم اشعر بشيء عدا الصداع.»

«اصبت برصاصتين في كتفك، وواحدة في ذراعك، كما انك خسرت كثيراً من الدم، ولكن نقل الدم اليك مرتين اصلح الأمر.»

كانت روز ماتزال تتفحص نفسها: «لماذا هذا الضماد على صدري؟»

أجاب: «تسلخات، ويبدو ان رصاصة قد احتكت بجانب صدرك دون ان تدخل إليه.»

فقالت بابتسامة عريضة: «حسناً، هذا من حسن حظي، وكيف حالتي يا دكتور؟»

«كيف تحسين بحالك؟» سألها ذلك وقد بانت الرصانة البالغة في عينيه فجأة.

نظرت إلى وجهه لحظة ثم نظرت إليه بأسى: «صدقني، فأنا اشعر بأنني محظوظة إذ مازلت حية، فقد كنت ظننت انني سأموت وهو شعور غير جميل جداً، إذا كنت لا تعلم.»

فاندفع يقول وقد ثار غضبه: «هذا حسن، فقد كان الأمر جحيماً بالنسبة إليّ، انا أيضاً يا روز، وانا اتساءل عما إذا كنت ستموتين. لا أريد أبداً أن اعاني ما عانيته في الأيام القليلة الماضية، مرة أخرى، وعندما تغادرين هذا السرير سأعيدك إلى الوطن، ومن الآن فصاعداً لن تذهبي إلى أي مكان من دوني حتى ولو اضطررت لتقييدك بمعصمي.»

عادت روز تستلقي على ظهرها، وقد تألقت عيناها في وجهها الشاحب: «اتعلم؟ عندما كنت على متن تلك الطائرة، كنت اتصور أنني قد لا أراك مرة أخرى، وكان هذا أسوأ شيء في الأمر على الاطلاق... وقبل ذلك الحين لم اكن أدرك مقدار حبي لك، يا دانيال.»

نظر إلى عينيها الزرقاوين الجياشتين بالعاطفة، وتأوه وهو يقول: «هل سنتزوج قريباً يا روز؟»

«نعم، أرجوك.»

• • •

بعد ذلك بأيام قليلة، اتصل دانيال بايرينا بعد ان كان خرج من غرفة روز التي كان الطبيب وتلامذته يفحصونها. كانت ايرينا وحدها في مكتب جينا، تنتظر خروج جينا من غرفة الاجتماع والذي استغرق طوال مدة العصر، وكانت

هيزل قد ذهبت إلى بيتها قبل ذلك بدقائق حيث لديها الكثير مما عليها القيام به استعداداً ليوم زفافها بعد ثمانية ايام.

عندما اخبر دانيال ايرينا بأن روز قد تقدمت الآن في طريق الشفاء، وانها ستغادر المستشفى قريباً جداً، تدفقت الدموع من عينيها: «آه، ما أروع هذا، هل انت واثق من ذلك، يا دانيال؟»

لكن صوت دانيال كان قوياً واثقاً مليئاً بالحرارة: «انها ستصبح على ما يرام، يا ايرينا، فكفي عن القلق لأجلها، وأظن ان بإمكانها ان تعود إلى الوطن قرب موعد عرس هيزل، رغم ان عليها ان تقوم بالرحلة على كرسي بعجلات.»

كان يضحك فضحكت ايرينا هي أيضاً، وهي تمسح دموعها.

«سأخبر هيزل، وستكون مسرورة إذ تسمع هذا.»

«أليست هي عندك؟»

«كلا، لقد ذهبت إلى بيتها وجينا ما زالت في الاجتماع مع السيد كاسبيان وإدارة الاعلانات وموظفي التسويق.»

كانت لغة ايرينا الانكليزية في تحسن مستمر، رغم انه كان عليها ان تركز على الكلام بشدة قبل النطق به.

قال دانيال وهو يتأوه: «طبعاً، لقد فقدت حسي بالوقت... ناسياً ان المكاتب لا بد مغلقة الآن ولم يبق في العمل سوى مكاتب المحررين.»

«اتريدني ان احولك إلى مكتب الشؤون الأجنبية؟»

أجاب: «ليس الليلة، إذ الأفضل ان أعود إلى روز، يا ايرينا، فأنا أريد ان اعلم ما قاله الجراح عن حالتها.»

«أبلغها حبي.»

«سأفعل طبعاً، كما انها ترسل إليك حبها، لقد طلبت مني ان اخبرك بأنها شديدة الأسف لإفسادها زيارتك إلى لندن بسبب اختطاف طائرتها واطلاق الرصاص عليها.»

أخذت ايرينا تضحك بصوت خافت: «اخبرها بأنني اعلم انها انما كانت تتباهى بذلك فقط.»

فضحك دانيال: «تماماً يا ايرينا. حسناً، تصبحين على خير، وبلغي حب روز إلى جينا، أيضاً، وهي تنتظر بلهفة حديثاً معها في الهاتف وربما غداً إذا تمكنت من ذلك.»

وضعت ايرينا السماعة وهي تبتسم، فقد بدا دانيال أسعد من أي يوم رأته فيه منذ قدومها إلى لندن.

وتملكها شعور بالارتياح لم تعرفه منذ مدة طويلة، فقد كانت عندما اجابت على المخابرة، تشعر بشيء من التعب بعد ان أمضت النهار بطوله تترجم مقالات من الاسبانية إلى الانكليزية، كان هذا العمل، مثيراً ممتعاً في البداية، ولكن عند العصر، وبالتحديد من الثانية حتى السادسة مساء، تملكها الصداع من شدة التركيز على صحة الترجمة التي تقوم بها، فهم لم يكونوا يريدون ترجمة حرفية، وإنما لغة مقروءة جيداً... وكان هذا هو الجزء الصعب حقاً لأن ايرينا لم تكن صحافية مدربة فكانت تتعلم اثناء سير العمل، وهكذا كان عليها ان تقوم بترجمة القطعة عدة مرات قبل ان تستقيم معها الترجمة في النهاية.

كان بإمكانها ان تذهب إلى بيتها منذ ساعة ولكن كان عليها ان تنتظر جينا لأنه لم يخطر لها ان تطلب مفتاحاً لشقة جينا ولهذا ما كانت لتستطيع الدخول لو انها عادت وحدها.

عندما عادت جينا إلى المكتب بعد ذلك بعدة دقائق، كان

التعب بادياً عليها، ما جعل عينيها بليدتي النظرات وشعرها خالياً من الرونق.

ابتسمت لها ايرينا بحرارة: «لقد فاتتك مخابرة دانيال لتوك، ان روز في أحسن حال، لأن دانيال كان يمزح ويضحك.»

ضحكت جينا وقد تبدد شعورها بالتعب على الفور: «أحقاً؟ آه، يا ايرينا، كم ارتحت الآن، لم استطع التركيز على شيء منذ وقوع هذا الحادث لها.»

«أعلم ذلك، فقد كنت مثلك، ولكنها الآن ترسل اليك حبها وستتصل بك هاتفياً من المستشفى حالما يسمحون لها باستعمال الهاتف.»

«حسب معرفتي بروز، اظنها سترسل قصتها قبل خروجها من المستشفى.»

«يقول دانيال انها نسخة ثانية عن ديسموند ايميري.» وضحكت الاثنتان.

ثم قالت جينا وهي تنظر إلى ايرينا بفضول: «لا يبدو انك ورثت عنهما ذلك.»

فهزت هذه رأسها بنظرة أسى: «كلا، لم أرث ذلك... انني لا استطيع ان اتصور نفسي مراسلة خارجية، فالتوتر يتملكني حتى عند التحدث مع شخص غريب... فهذا الصباح عندما خرجت لأشتري الشطائر من المطعم، كان هناك فتى يبيع...»

وسكتت مقطبة جبينها، ثم قالت مستفهمة: «هل عليّ ان اقول «يبيع» أم «يقدم؟»

«بل يقدم. هل هو إيطالي؟ لا بد انه روبرتو توريلي، لا تقولي انه لم يكن ودوداً لأنه كذلك في العادة.»

«بل كان ودوداً تماماً، ولكنه أخذ يحدّق بي ما جعلني أشعر بالتوتر، لو كانت روز مكاني لهزت كتفيها دون اهتمام ولكنني لا استطيع ذلك، انني... آه ماذا اقول؟»

«اتريدين القول انك خجولة؟»

تنهدت ايرينا: «نعم، هذه هي الكلمة، انني خجولة جداً مع الغرباء، بعكس روز.»

نظرت اليها جينا بإمعان، ثم سألتها: «هل تشعرين بالخجل من النساء أيضاً أم من الرجال فقط؟»

«من الرجال اكثر من النساء، فهكذا نشأت، لقد عشت في مزرعة ثم ذهبت إلى مدرسة في أقرب بلدة، عشت في منطقة نائية من اسبانيا حيث لم يكن حصل هناك نفس التطور الذي حصل في المناطق الساحلية حيث يتوافد السائحون.»

«لا بد ان لندن تشكل لك صدمة حضارية، إذن؟»

قالت ايرينا وهي تضحك فجأة: «كان ذلك في باريس، لقد جئت من قريتي الصغيرة مذهولة لكل ما أراه، فوجدت الرجال يحيطون بي يطلبون مني مواعيد.»

فقالت جينا: «يا لك من محظوظة.»

ضحكت الاثنتان، ثم نظرت جينا إلى الباب خلف ايرينا وساد الجمود وجهها وهي تقول: «آه، مرحباً.» فالتفتت ايرينا عالمة بأنها سترى نيكولاس كاسبيان بالنسبة لنظرات جينا الباردة كعادتها كلما وقعت عليه.

اما ما لم تتوقعه فهو أن ترى معه استيبان لقد كان ذلك أشبه بالصدمة بالنسبة اليها، فتغيرت ملامح وجهها، وعادت تحول وجهها بعيداً.

كانت لم تنس بعد لهجة الإحتقار التي حدثها بها استيبان

بعد ان جرها من ستديو التصوير، وهي لم تكد تراه منذ ذلك الحين ما جعلها تتساءل عما إذا كان يتجنبها عمداً، أو لعله محرج... حسناً، هذا ما ينبغي ان يشعر به إزاء ظنه الخاطىء بها مرة أخرى.

لم تكن مستعدة لقبول أي اعتذار منه، هذه المرة، انها ترى شخصيته من خلال تصرفاته هذه، وهي انه لا يثق بهن، وهذا يفسر غضبه الكامن الذي شعرت به في أول لقاء لهما في الطائرة، لقد كان نظر اليها، حينذاك، بازدراء ونفور لأنه ظنها تحاول التعرف إليه ما جعلها تشعر بشيء من الخزي والغضب لأنها لم تنكر انها ما كانت تمانع في التعرف إليه حيث انها وجدته جذاباً تماماً.

سألها كاسبيان مازحاً: «ما هذا الذي تقولينه من أن الرجال كانوا يحدقون بك في باريس يطلبون مواعيد، يا ايرينا؟»

فتلعثمت ايرينا وهي تعلم ان استيبان يراقبها، تلعثمت وهي تقول: «حسناً، الرجال الفرنسيون هم...» وسكتت.

فضحك نيكولاس: «ميالون إلى العشق؟»

فأسرعت تقول: «بل شاعريون.»

قالت جينا: «الرجال الفرنسيون يحبون النساء، وهذا هو السبب في انهم رائعون.»

أدار نيكولاس اليها عينين ضيقتين: «هذا هو السبب إذن في حبك لباريس، هل تعرفت هناك إلى أي فرنسي شاعري؟»

قالت وقد بدت البرودة في عينيها الخضراوين: «تعرفت إلى واحد أو اثنين.»

فقال متجهم الوجه: «اذا كان حب النساء شيئاً شاعرياً، فأكثر الرجال شاعريون.»

والتفت إلى الرجل الآخر ويسأله: «ماذا بالنسبة إلى الرجال الاسبانيين، يا استيبان؟ انهم شاعريون يحبون النساء، أليس كذلك؟»

أجاب بعفوية: «في مكانهن فقط.»

حملقت فيه جينا: «لا اصدق ما سمعت، هل سمعت ما قاله، يا ايرينا؟ ما هو مكاننا يا استيبان؟ هل هو المطبخ؟»

قال نيكولاس ببطء وهو يضحك: «انه منزل الرجل.»

«ما هذا الكلام؟» وتقبضت يديها وكأنها تريد ان تضربه، فكفّ نيكولاس عن الضحك وقال: «كانت هذه مجرد مزحة، يا جينا، ولا لزوم للقتال.»

قالت له بحدة: «ولكنك تعني ذلك جزئياً.»

فهز كتفيه: «إذا شئت فمرحباً بك في منزلي في أي وقت.»

فتحت ايرينا فمها تشهق بصمت، فقد اجفلت لكلام كهذا وان كان من الغريب انها لم تستغرب صدوره من نيكولاس، فهما الاثنان يتشاجران على الدوام كلما تقابلا، ومع ذلك فقد داخلها الشك في ما إذا كان نيكولاس لا يريد ذلك وإنما جينا هي من يكن العداء له، وأنه انما يرد عليها بنفس العدوان.

رفعت جينا يدها لتضربه، فأمسك هو برسغها دون صعوبة منزلاً ذراعها وهو يحدّق في عينيها وقد توترت شفتاه: «إياك ان تجربي هذا، يا جينا، قد تصلح النساء في منافسة الرجال في بعض الأمور، ولكن اذا وصل الأمر إلى التضارب، فمن الحكمة ألا يبدآن القتال.»

توهج وجهها غضباً فخلصت ذراعها من يده واستدارت على عقبيها مغادرة الغرفة، فتبعها نيكولاس، بينما منع الذهول ايرينا من الحركة فأخذت تحدق في اثرهما بعد ان تواريا وانغلق الباب خلفهما، صفر استيبان بخفة وهو يقول: «هذان على أهبة الانفجار على الدوام.»

نظرت ايرينا إليه ساخطة: «انك انت من ابتدأ ذلك الشجار.»

فحدق اليها قائلاً: «أنا؟ ما الذي تتكلمين عنه؟»

«عن كلامك الأحمق عن ان النساء لا بأس بهن في مكانهن، لقد جرحت جينا، ووقع اللوم على نيكولاس.»

«لو ان ذلك الشجار لم يحصل بسببي لحصل حتماً بسبب شيء آخر، فهما دوماً يتشاجران لأي سبب.» وهز كتفيه ساخراً وقد بدت الكآبة في عينيه: «لو انهما فقط ذهبا إلى المنزل معاً، وتصالحا، لانتهيا من كل هذا التوتر الذي يتملكهما نحو بعضهما البعض.»

احمر وجه ايرينا وقالت: «ليس الانفراد هو الحل لكل شيء.»

فتمتم عابساً: «ومن قال انه الحل؟ لكن العاطفة هي غريزة الحياة الأساسية.»

فقالت: «قد تكون العاطفة هي أساس العلاقات الانسانية ولكن للحب سلطة أقوى، ليس من المرأة والرجل فقط، ولكن بين الأم والطفل والأب والطفل.»

فضحك وهو يقول: «انني لن أدخل في مناقشة هذا الموضوع، فقد امضى الرجال والنساء مئات السنين من الخلاف حوله.»

قالت وقد تذكرت اتهامه الظالم لها مرتين: «والرجال

دوماً على خطأ بالنسبة إلى مشاعر النساء، على كل حال، فنحن لا نتصرف بطريقتكم... وانت محظوظ إذ لم يسمعك شقيقاي وانت تقول لي ما قلته لتوك، وإلا لثار ثائرهم.»

«هل لديك أيضاً أخوة؟ وهل هما اكبر منك؟»

«بل اصغر، رامون في الثامنة عشرة، وميكيل في السادسة عشرة.»

قطب استيبان حاجبيه وبدت على وجهه الحيرة: «لم أكن اعلم ان لوالدك ولدين بذلك السن.»

«انهما... انهما ليسا ولدي ديسموند، فقد كان تزوج والدتي ثم طلقها دون ان يعلم انها حامل، فعادت إلى بلدها وتزوجت والد شقيقي، وقد رعاني زوج والدتي، وهكذا روز هي نصف شقيقة لي إذ كان ديسموند تزوج والدتها قبل والدتي، ولكنها ماتت قبل ان يتعرف إلى والدتي، وشعرت والدتي بأن ديسموند لم يكن يحبها وإنما كانت كل مشاعره مع زوجته الراحلة ولهذا طلبت منه الطلاق، وعندما أدركت انها حامل منه لم تخبره... وكذلك لم تخبرني أنا بالحقيقة إلا بعد ان مات والدي... اعني زوجها، والذي كنت اظنه والدي طبعاً، عند ذلك اخبرتني بالحقيقة، لقد حزنت جداً ولم اصدقها تماماً، وبعد ذلك بشهور قابلت ديسموند، والدي في باريس، فأراني صورة لوالدته جدتي فوجدتها تشبهني تماماً عند ذلك أدركت انها الحقيقة.

سكتت فجأة دون ان تنظر إليه خوفاً مما قد يبدو في عينيه من شفقة أو احتقار أو فضول، لم تكن تريد أياً من هذا منه، ولم تكن ايرينا تعلم لماذا يهمها رأي استيبان فيها كثيراً، كل ما كانت تعرفه ان هذا هو الواقع، فقد كان لاستيبان من

السلطة بحيث يؤلمها أو يسعدها، وذلك بكلمة أو نظرة.

عندما ظل صامتاً، انفجرت تقول: «آه، ما كان لي ان اخبرك، ارجوك ألا تخبر احداً بذلك.»

فقال: «لن أخبر أحداً على الاطلاق.» ثم أمسك بذقنها ودفع رأسها إلى الخلف، شعرت بقلبها يخفق بعنف، ولم تجرؤ على مواجهة عينيه بينما تمتم هو يقول: «يمكنك ان تثقي بي، يا ايرينا، اقسم ألا يعرف مني لحد بما اخبرتني به.»

تجرأت على النظر في عينيه، متفحصة وجهه بعينيها الكبيرتين: «أريد ان أثق بك، ولكن...»

فأصر قائلاً: «بل ثقي بي.»

«وكيف يمكنني ذلك وأنا لا اعرف ما اعني لك؟ مرة أراك فيها شهماً رقيقاً، ومرة أخرى تبدو لئيماً، كما تصرفت معي حين جررتني من استوديو التصوير و...»

لم تجرؤ على ان تنكر ظنه فيها في ذلك الحين، ولكنه أدرك ما تعنيه، فأظلم وجهه وتوترت شفتاه فقالت: «هكذا بدوت حينذاك، لقد أهنتني حين قلت لي انني أستمتع... بلمساته... قد تستمتع بعض الفتيات بذلك النوع من الغزل، ولكن ليس أنا.»

«ما كان لك قط ان تسمحي له بأن يتصرف معك بمثل سوء الأدب ذاك.»

«لقد اخبرته فعلاً بألا يتصرف معي بذلك الشكل، ولكنه لم يهتم بكلامي.»

«كان عليك ان تتركيه وتخرجي من الاستديو.»

ساد بينهما الصمت فترة شعرت فيها بأنها موشكة على البكاء: «لقد ذهبت فقط لمكتب التصوير ذاك لكي اتصور

لأجل البطاقة الشخصية، لا أدري لماذا حاول ذلك المصور ان يأخذ لي مثل تلك الصورة.»

فقال لها بخشونة: «يمكنني أن اخبرك بالسبب، لقد رأى مدير المكتب، تيم دويل، ان صورتك ستبدو مناسبة لوضعها في تقويم سنتنال السنوي.»

نظرت اليه بجمود وارتباك: «ماذا؟»

فعبس وقال بلهجة ساخرة: «آه، ذلك احد مشروعات نيكولاس كاسبيان، فهو قد وضع في الصحيفة نوعاً من مباريات الجمال، واضعاً فيها صور فتيات يرسلها اليه القراء، واغلبها بلباس البحر أو ملابس مغرية، وهذا التقويم سيكون ناحية منه.» سكت استيبان، ثم عاد فهز كتفيه وهو يقول باشمئزاز: «تلك وسيلة ذكية لتسويق الصحيفة، طبعاً، ان كل من سيرسل صورة لحبيبته أو ابنته أو زوجته سيشتري التقويم السنوي ليرى ان كانت صورتها فيه أم لا، هذه هي الغاية، على كل حال، وعادة ما تأتي نظريات نيكولاس في التسويق بالغة الدقة والنجاح.»

نظرت اليه بحيرة بالغة: «ولكن إذا كانت الصور يرسلها القراء، فلماذا أراد المصور ان يأخذ صورتي؟»

«كان يريد ان يضع صورتك بين البقية.»

لكنها مازالت لم تفهم: «ولكن ماذا؟»

«آه، ذلك مخالف للقانون تماماً، ولكنه كثيراً ما يحدث في الصحف، فهم يضيفون صوراً عندما لا يكفي ما يتلقونه في البريد. والمصور يبحث دوماً عن الأفضل، وقد رأى تيم دويل أن الصور التي تلقاها متشابهة جداً فاراد شيئاً مختلفاً، وعندما دخلت انت إلى مكتبه، خطرت له فكرة استخدامك بدلاً من امرأة

تمتهن ذلك، إذ كان من الصعب اثبات انك اضافية كما ترين.»

بدا الذعر على ايرينا: «آه، ولكنني لا اريد ان تظهر صورتي في سنتنال أو في هذا التقويم، خصوصاً بهذا المنظر.»

لوى استيبان شفتيه: «لا تقلقي لهذا الأمر فلن ينشروا صورتك، لقد حذرتهم من ذلك بكل وضوح وطلبت منهم ألا يقتربوا منك أو يكلموك مرة أخرى.» وابتسم لها ساخراً. «من المفيد احياناً ان يكون المرء مدير تسويق.»

ابتسمت له ايرينا ثم سألته: «آسفة لغبائي إذ ألقي عليك هذا السؤال وهو ماذا يعني بالضبط عمل مدير التسويق؟ هل انت المسؤول عن بيع الصحيفة؟»

«كلا فذاك عمل مدير المبيعات، أما أنا فأبيع كل شيء ما عدا الصحيفة.»

لكنها مازالت لم تفهم: «ولكن، لم أفهم؟»

عاد استيبان إلى المزيد من الشرح: «اسمعي، هنالك كثير من انواع السلع تنبثق من صحيفة سنتنال، وذلك من القمصان القطنية إلى الكتب إلى أشرطة التسجيل حتى أجهزة الفيديو، وهذا التقويم طبعاً، ومهمتي هي ابتكار افكار عن مشروعات لسلع جديدة على ان تكون اسعارها معقولة ما يجعل قراء سنتنال يشترونها، وهذا شيء مهم جداً، اننا طبعاً، نوجد السوق لسلعنا، ولهذا علينا ان نضع لها ثمناً هو بالضبط ما نعلم ان الناس يقبلون دفعه، فإذا كان الثمن غالياً فلن يشتروه، ولكن إذا كان منخفضاً جداً فهم أيضاً لا يشترونه إذ يتملكهم الحذر خوفاً من ان يكون رديء النوع، ان علينا ان نكون من المهارة بحيث نتكهن بما يظنونه يستحق من ثمن.»

«تبدو انها مهنة هامة للغاية، شكراً لتفسيرك هذا لي،

ولأجل إزاحة الغموض عن تصرفات المصور، لقد ظننته مجنوناً، نوعاً ما.»

قال برصانة: «كلا على الاطلاق، وانما كان يتبع الأوامر.»

«حسناً، اشكرك، واشكرك أيضاً لوعدك بألا تتحدث بما أفضيت به إليك.»

«ما كنت لأفعل هذا، على كل حال، ثم انني اشارك ديسموند شعوره، اذ أنني أنا أيضاً مررت بمحنة مؤلمة أجد من الصعب التحدث عنها.»

«ما هي؟» ابتدأت بالسؤال ثم سكتت فجأة وهي تعض شفتها السفلى بعد أن رأت وجهه يظلم، فسارعت تقول: «كلا، آسفة... انس سؤالي هذا...» وسمعا اصواتاً تقترب من المكتب، فعرفا ان نيكولاس وجينا عائدين، فنظر استيبان من فوق كتفه، ثم قال بسرعة: «هل تتناولين العشاء معي هذه الليلة، يا ايرينا؟»

لكن الباب انفتح قبل ان تتمكن من الإجابة، وجينا تقول معتذرة: «آسفة لتركك كل هذا الوقت، يا ايرينا... ولا بد انك جائعة، فقد كان وقت العشاء تقريباً بينما انت تنتظرين طوال الوقت، هل نذهب إلى البيت أولاً ثم نغير ملابسنا أم نذهب مباشرة إلى مطعم بيير ونأكل أولاً؟»

نظرت ايرينا إلى استيبان مترددة، وقد بان الخجل في عينيها: «حسناً، في الواقع يا جينا... انا... نحن...»

تطوع استيبان بالجواب وهو يراها تتلعثم: «لقد دعوت ايرينا للتو لتناول العشاء معي يا جينا.»

أجفلت جينا ثم قالت وهي تنظر إليه باهتمام: «آه.»

فتمتم نيكولاس: «هل لنا ان نجعل الدعوة رباعية إذن؟»

قطب استيبان جبينه، وإذ كانت جينا تنظر إليه قالت بسرعة: «كلا، آسفة، ان لدي عملاً آخر هذا المساء، وعليّ ان أذهب إلى بيتي بأقرب وقت ممكن. سأعطيك يا ايرينا مفتاحاً للشقة لكي تعودي ساعة تشائين إلى البيت.»

واخرجت مفتاحاً احتياطياً احضرته لها، «إلى اللقاء، واستمتعي بوقتك وانسي كل شيء عن روز لفترة.» ثم جمعت جينا اشياءها وغادرت المكتب يتبعها نيكولاس متلكئاً وهو يقول لهما: «استمتعا بوقتكما.» فاحمر وجه ايرينا، وسألت استيبان تغطي بذلك ارتباكها:

«هل سنتناول العشاء في مطعم بيير؟»

لكنه هز رأسه نفياً: «كلا، فكرت في أن أريك شيئاً من لندن هذه الليلة، وهكذا سنقوم بنزهة في السيارة، وبعد ذلك قد تحبين ما يذكرك بوطنك، فأنا أعرف مطعماً اسبانياً في ضاحية هامبستيد، ما رأيك؟ هل تحبين ان تأكلي طعاماً اسبانياً؟»

«انني اتلهف إلى ذلك، فقد مضت دهور منذ أكلت طعاماً اسبانياً، انهم يقدمون بيلا في باريس، ولكن مذاقه مختلف، فهو خال من التوابل.»

«الطاهي في هذا المطعم اسباني، فهو مكان عائلي تعتني فيه الزوجة بالموائد بينما الزوج في المطبخ يطهي الطعام، وهو من بلدتي في اسبانيا... كاستيل قرب سيكوفيا... وانت تعرفين ما يقولونه عن مناخنا، تسعة اشهر من الشتاء، وثلاثة اشهر من الجحيم، فاما ان تتجلدي في برودة الشتاء القارسة، وإما ان تحترقي في لهيب شمس الصيف المحرقة، فهي أرض لا تنبت رجالاً لينين، ان جوان طاهٍ تقليدي يضع كل البهارات اللازمة والكثير من الثوم والبصل.»

ضحكت ايرينا: «انني احب كثيراً الثوم والبصل في الطعام.»

فقال: «مثلي أنا.» قال هذا وقد بدا عليه المرح تقريباً، لقد اصبحت تعرف الآن انه من الجبال الوعرة ما جعل فهمها له يزداد، كان جو الأندلس معتدلاً تماماً بالمقارنة بهذا الجو الذي نشأ فيه، لقد كان فصل الشتاء سيئاً في الجبال التي نشأت هي فيها، ولكن الجبال هذه كانت تعلو سواحل البحر المتوسط المعتدلة ما يجعلها أقل صعوبة وإيلاماً من جو كاستيل.

قال وهو يرفع سماعة الهاتف: «يجب ان اتصل بجوان قبل ان نذهب إليه.» أخذت تراقبه سراً بينما كان يتكلم بالهاتف، لقد فهمت الآن سر خشونته وقوته وغضبه الكامن، كانت طبيعته تعكس البيئة التي نشأ فيها حيث تعلم أيضاً كيف ينشأ رجلاً ديكتاتوراً كأشقائها يتوقعون التسلط والسيطرة على نسائهم اثناء حياتهم.

نزلا بالمصعد إلى تحت الأرض حيث موقف السيارات، ثم استقلا سيارته خارجين إلى شارع نورث ستريت، مجتازين ساحة مجمع باربري وارف ثم انطلقا بمحاذاة النهر نحو جدران برج لندن الأثرية الحالمة تحت شمس الأصيل وكأنها لم تكن يوماً ما مصدر تهديد ورعب لأهالي لندن، ولم تر السجناء يدخلون من تلك البوابات الواسعة.

كانت مدينة لندن الاقتصادية، تقوم خلف البرج مباشرة، واثناء النهار، كما اكتشفت ايرينا كانت تحتشد بالناس رائحين قادمين. ولكنها بدت الآن مختلفة بعد الاقفال الليلي للمصارف والمكاتب والمؤسسات المالية والموظفون ذهبوا إلى بيوتهم فأقفرت الشوارع منهم.

استدار استيبان إلى الشمال وسرعان ما كانا خارج لندن

صاعدين التلال خلال شوارع تحفها بيوت واسعة على الطراز الفيكتوري، كانت سيارة استيبان رياضية من طراز فيراري صغيرة الحجم ولكنها قوية للغاية، فكانت تتسلل في زحام السير كالهرة لتصبح في المقدمة كلما سنحت لها فرصة.

أخيراً قال: «هذه ضاحية هامبستيد.» وأوقف السيارة عند لون الإشارة الأحمر مريحاً يديه السمراوين على عجلة القيادة.

«ان الأرض البور هي في نهاية هذا الشارع، وسنلقي نظرة عليها قبل ان نذهب إلى مطعم جوان.»

أوقف السيارة في شارع جانبي بقرب الأرض البور، ثم خرجا منها سائرين على العشب تحت الأشجار، كان الظلام الآن قد حل، ولكن مازال هناك كثير من الناس خارج بيوتهم.

كانت المسافة قصيرة، ولكن المكان كان عالياً يشرف على بيوت لندن، وكانت هناك نجوم قليلة بينما ضوء القمر يتألق خلف سحابة في مكان ما، منعكساً في بركة مياه راكدة مرابها.

أبصرا رجالاً ينزهون كلابهم، ونساءً مع اطفالهم الذين كانوا يلعبون بالكرة، فتيات في تنانير قصيرة قادمات من ملاعب التنس.

قالت ايرينا تحدث نفسها بصوت مرتفع: «ما اكثر هؤلاء الناس وما يقومون به من اشياء مختلفة، انه مكان جميل حقاً، ولا بد انه مكان حسن ليعيش فيه الانسان.»

وحول الأرض البور، كان هناك المزيد من تلك البيوت الكبيرة الفيكتورية الطراز، وقد اخذ زجاج نوافذها يعكس أضواء الليل.

«حياة المدينة غريبة، أليس كذلك؟»

قال استيبان ذلك بينما وقفا يتفرجان على مصابيح الشارع

وهي ترسل انوارها من خلال اغصان الأشجار، كانا اخذا يتكلمان طوال الوقت بالاسبانية منذ اصبحا وحدهما، شاعرين بالارتياح والمتعة وكان يتابع قائلاً: «انها طريقة حياة مصطنعة تماماً، فهي اكثر سيراً وسهولة من الحياة في قريتي.»

فقالت بأسى: «وأيضاً في قريتي، فقد كانت حياتي هناك خشنة تماماً فنحن لم نكن أغنياء، ولكننا كنا سعداء على الدوام، وما كنت لأغير طريقة حياتي مهما كان الثمن... وما تمنيت يوماً لو انني نشأت في مدينة كبيرة.»

فقال موافقاً: «ولا أنا.»

ترددت لحظة، ثم قالت: «عند أول مجيئي إلى لندن، وجدت ان روز كانت في تلك الطائرة وفي ذلك الخطر عند ذلك اخذت اتمنى لو أعود إلى بلدي.»

«هل مازالت والدتك تسكن هناك مع شقيقيك؟»

أومأت تقول: «ان رامون وميكيل يقومان بأعمال المزرعة معها، والمنتوج يكفي لمعيشتهم، انني اذهب اليهم في الإجازات... فأنا اعشق الحياة هناك. وقد مرت دهور قبل ان اعتاد ضجيج المدن وزحام السير اثناء الليل، في باريس ولندن، ان ضجيج المدن لا يطاق، فأنت لا تستطيع ان تفكر، فكيف تنام؟ كم احن أحياناً إلى فترة سكون.»

فقال: «انني اعرف ما تعنين، فهذا كان شيئاً لم تستطع زوجتي أن تتعود عليه قط، هي أيضاً، ألا وهو ضجيج المدن.»

شعرت ايرينا بهزة ألم، واتسعت عيناها ذهولاً وهي تسأله: «هل انت... انت متزوج؟»

الفصل السابع

كان استيبان يقف جامداً لا يتحرك دون ان ينظر اليها، وكان يحدق إلى الأرض البور امامه وقد بدت الخشونة على جانب وجهه، فبدا وكأنه من الحجر لولا لمعان الغسق في عينيه.

ثم قال: «كنت متزوجاً... ولكنها ماتت.»

فقالت متلعثمة: «آه... انا آسفة...»

استدار على عقبيه وقد بدا عليه وكأنه يستنكر عطفها وحتى اهتمامها، كما شعرت، وكأنه يريد ان يجعلها تدرك بأن ليس لها الحق بأن تشعر بشيء من ذلك.

«هل نذهب لنأكل الآن؟ ان مطعم جوان لا يبعد سوى مسافة قصيرة سيراً على الاقدام نحو سفح التلة، اننا سنترك السيارة هنا حيث أن من الصعب العثور على موقف لها في قرية هامبستيد.»

أسرعت خلف خطواته الواسعة، وذهنها يجول بأسئلة كانت تعلم انها لن تجرؤ قط على القائها عليه بعد تلك الطريقة المختصرة التي حدثها بها فيها أن زوجته ماتت، كان واضحاً انه لأنهما كانا يتحدثان بالاسبانية وكان يشعر لذلك بالارتياح، انطلق يذكر زوجته، ثم ما لبث ان ندم على ذلك فعاد يرخي الستار على مشاعره مرة أخرى، كان عليها أن تتذكر ما هو عليه من كبرياء... ذلك التراث الاسباني الذي ورثاه معاً ووجدا صعوبة في التخلص منه.

كلما ازدادت معرفتها به، إزداد إدراكها بمبلغ تعقده...

وبالتالي تعمق مشاعرها نحوه، لقد كان ابتدأ يدخل قلبها ووجدانها... حتى في غيابه لم تكن تستطيع منع نفسها من التفكير فيه.

هل يعرف أحد آخر في سنتنال أنه كان متزوجاً؟ من المؤكد ان جينا وهيزل لا تعلمان بذلك، وإلا لذكرتا ذلك حتماً، وإذا كانتا لا تعلمان، فليس من المحتمل ان يعرف احد آخر بذلك، وهذا يعني أن زوجته لا بد ماتت قبل ان يأتي إلى لندن.

كم مضى على موتها؟ اخذت ايرينا تتساءل عن ذلك وهي تتبعه في شوارع القرية وحول المنعطف إلى شارع هامبستيد الرئيسي. ان حساسية استيبان قد تعني انها لم تمت منذ وقت طويل جداً... وربما موتها هو الذي جعله يهجر اسبانيا إلى لندن.

تمتم يقول لها: «لم يعد المطعم بعيداً الآن.» كانت المتاجر قد اقفلت الآن، ولكن ايرينا كانت تعلم الآن إلى أين يقصدان، فقد وقعت عيناها على المصباح الاسباني الحديدي معلقاً فوق واجهة مطعم مضاءة.

عندما وصلا إلى الباب، رأت لافتة أخرى بجانبه على الجدار مكتوباً عليها (مطعم جوان).

دفع استيبان الباب فتعالى صوت جرس فرجع إلى الخلف ليدع ايرينا تمر، وعندما دخلت أسرع نحوهما رجل قصير القامة أسود الشعر وهو يبتسم بأدب حتى رأى استيبان فاتسعت ابتسامته على الفور: «استيبان.»

تصافح الرجلان وهما يتعانقان في نفس الوقت ويتحدثان.

«كنت لتوّي احدث شقيقي جيم عنك في الهاتف... جيم،

لقد كنت تعرفت إليه في تلك المباراة الكبرى في مدريد السنة الماضية اتذكر؟»

«طبعاً، كيف حاله؟ كانت المباراة مثيرة، وقد لعب هو جيداً.»

فتنهد جوان: «لقد خسروا ثلاثة لاثنين. هل قلت انها مثيرة؟ لا أدري بماذا علي ان اصفها، لقد أوشكوا ان يحصلوا على الغول الثالث لولا صفير الحكم في اللحظة غير المناسبة، كانا على الأقل سيتعادلان.»

فأومأ استيبان: «لو لا التواء كاحل كورياس لكانوا انتصروا.»

«انه دوماً يصاب بمشاكل في ساقه، في الموسم الماضي أصيب بعضلات ساقه فأخرج من الملعب وبقي أسابيع خارج اللعب.» وتنهد جوان: «انه يكبر... كلنا نكبر، حتى أنت يا استيبان، لقد وجدت شعرة بيضاء في رأسي منذ أيام، إياك ان تخبر ليديا فترغمني على استعمال الصبغة.»

فضحك استيبان: «كيف حال ليديا؟ هل هي هنا الليلة؟»

«طبعاً، وستأتي في أية لحظة، فقد خرجت لتحضر بعض الخضار من الحقل، اننا نزرع ما نحتاجه من خضار بأنفسنا.» وتحولت عينا جوان نحو ايرينا فقال استيبان يقدمهما إلى بعضهما البعض: «ايرينا هذا صديقي القديم جوان مارتينو، جوان هذه ايرينا اوليفيرو.»

«وأخيراً أرى معك فتاة اسبانية حلوة، كنا خائفين من ان تقتصر مواعيده على الفتيات الانكليزيات.» قال جوان ذلك بابتسامة ماكرة.

فقال لها استيبان: «انها طريقته في المزاح، فلا تهتمي لذلك.»

قال لها جوان: «أهلاً بك في مطعمي يا ايرينا... يمكنني ان ادعوك ايرينا... أليس كذلك؟»

«طبعاً.»

«وعليك ان تناديني جوان أيضاً، ماذا تفعلين في لندن؟» وشملها بنظرة شاملة متفحصة. «دعيني اخمن، أنت تلميذة.»

فقالت ضاحكة: «هذا صحيح...»

«يا لك من محظوظ يا استيبان جميلة جداً، وذكية ولم تكد تخرج من البيضة.»

انفجر ضاحكاً، ولكن استيبان لم يضحك فقد توترت ملامحه، وقطب حاجبيه.

رأى جوان ذلك منه، فقال بسرعة: «هذا مزاح فقط، انها طريقتي الحمقاء في المزاح، مرة أخرى، انك تعلم ان مزاحي خالٍ من الذوق، فلا تهتم بي.» ثم سأل ايرينا: «ماذا تتعلمين؟ الانكليزية؟»

فهزت رأسها: «انني اشتغل في لندن اثناء العطلة الصيفية فقط، وذلك في قسم الترجمة في سنتنال، انني في الواقع، اتعلم اللغة الفرنسية في السوربون في باريس.»

بدا الاهتمام على جوان: «هل تخططين للعمل في الفنادق؟ ان اللغات هناك مفيدة تماماً، إذا أردت عملاً في مطعم، يسرني ان اعطيك فرصة للتجربة.»

قال استيبان وهو يسير بها إلى داخل المطعم: «انها ليست بحاجة إلى ان تعمل نادلة، يا جوان، فهي تقبض أجراً حسناً في سنتنال، أين سنجلس؟»

أجاب جوان: «حيثما تشاء، ماذا تحبين أن تشربي، يا ايرينا؟»

«كوباً من المياه المعدنية، فقط.»

قالت ذلك بينما كان استيبان يختار مائدة لهما، ثم يسحب كرسياً لأجلها وهو يقول لجوان: «وانا سأشرب نفس الشيء.»

احضر لهما جوان ما طلباه ليعود إلى المطبخ ثم يحضر بعض صحون صغيرة تحتوي على مقبلات وضعها امامهما على المائدة.

عند ذلك دخلت امرأة سوداء الشعر إلى المطعم من المطبخ لتضع المزيد من الأطباق ورآها جوان فهتف: «ها هي ذي ليديا، انه هنا يا عزيزتي، تعالي حييه.»

«استيبان، ما اجمل ان أراك.» وجاءت إليه تحييه وتشد على يد ايرينا وتتأملها باهتمام مثل زوجها: «إذن، فأنت اسبانية؟ منذ متى انت هنا؟ ان انكليزيتك جيدة افضل من انكليزتي.»

قال لها زوجها مازحاً: «انك لا تتعلمينها.»

«ومتى كان لديَ وقت لذلك؟ انني استعملها يومياً في خدمة الزبائن.»

وابتسمت ضاحكة لايرينا: «ان الزبائن يريدونني ان اتكلم الانكليزية بلهجة اسبانية غالبة، فهذا يعجبهم.»

قال جوان متظاهراً بالغيرة: «انهم معجبون بك ويغازلونك وانت تحبين ذلك.»

فقرصت خده وهي تقول: «لا تكن غيوراً.» كان واضحاً انهما سعيدان معاً، فهما يبتسمان لبعضهما البعض كعاشقين، وكانت ليديا في الثلاثينات من عمرها، لم تكن جميلة ولكنها جذابة جداً، ذات بشرة ذهبية، ناعمة وعينين سوداوين واسعتين، وابتسامة دافئة.

قال جوان وهو ينظر إلى ساعته: «اظن عليّ ان اذهب الآن إلى المطبخ وأبدأ الطهي، سأراكما فيما بعد، فلا تذهبا قبل ان تقولا لي وداعاً.»

هذا بينما وضعت ليديا مريلة بيضاء وناولتهما قائمة الطعام وهي تقول لهما: «هيا، تناولا المقبلات.» نظرت ايرينا إلى جميع هذه الأطباق الصغيرة المتنوعة اللذيذة، كان هناك البيض المسلوق مع المايونيز، والفطر، وقطع من السجق بالتوابل وغير ذلك.

قال استيبان لاوياً شفتيه: «اذا انا أكلت كثيراً من هذا، فلن تبقى لي شهية لغيره.»

«يجب علينا أن نذوق بعضها على الأقل، وإلا جرحت كرامة ليديا.» قالت ايرينا ذلك وهي تنظر إلى ليديا التي كانت ترحب ببعض الزبائن الجدد وتقودهم إلى موائدهم.

أخذ استيبان يلتقط بشوكة صغيرة شيئاً من السجق يأكله وهو ينظر إلى قائمة الطعام بينما تذوقت ايرينا أيضاً بعض المقبلات بينما كانت تقرر ما ستطلبه لوجبتها، حساء السمك، ثم فاصوليا بيضاء والذي كانت والدتها تكثر من طبخه ما جعلها تشعر بالحنين إلى موطنها، هذا بينما اختار استيبان أرنبيان مشوي ودجاج مطهي بالفلفل الأحمر والأرز.

قال لها وهي تطلب وجبتها: «ماذا عن البيلا؟» فضحكت وهزت رأسها تشرح لماذا فضلت الفاصوليا البيضاء.

قالت ليديا: «أخشى ألا يصنعها جوان بنفس طريقة والدتك.» ذلك انه كان ثمة طرق متعددة لطهي الفاصوليا، تماماً كما كان هناك الف طريقة من البيلا.

دخل مزيد من الزبائن، فتحولت ليديا لاستقبالهم، كان المطعم يمتلىء الآن ما جعل ليديا مشغولة جداً.

كان طبق الفاصوليا البيضاء رائعاً، تماماً كما كانت والدتها تصنعه، تحدثا قليلاً اثناء الطعام، وقد تملكهما التوتر، وكانت ايرينا شاكرة للصمت الطويل الذي ساد بينهما.

سألته بأدب: «هل كنت تشتغل في مدريد قبل حضورك إلى لندن؟» فأومأ ايجاباً.

عادت تقول: «لقد ذهبت أنا إلى هناك مرة واحدة فقط وذلك في رحلة يوم واحد في الحافلة.»

«يجب ان تذهبي مرة أخرى انها إحدى اجمل العواصم في العالم... فهندستها رائعة، وقد أمضيت فيها سنوات سعيدة جداً من حياتي.» وسكت وهو ينظر في طبق طعامه.

سألته وهي غير واثقة إلى أي مدى بإمكانها ان تستمر في القاء الأسئلة: «هل في نيتك العودة إلى هناك يوماً ما، مادمت كنت سعيداً فيها؟»

هز رأسه وقد بدت الكآبة على وجهه: «لقد فارقتني السعادة بعد موت دومنغا.»

فهمست مترددة: «زوجتك؟»

أومأ وهو يعبث بكوب الماء الفارغ سادت فترة من الصمت قال بعدها: «كانت في العشرين من عمرها فقط، وكان ذنبها بسبب خطأ مني، فقد ماتت بحادث... سقطت من فوق السلم.»

شهقت ايرينا مجفلة: «آه، ما افظع هذا.»

فقال: «ليس السقوط هو الذي قتلها، وإنما لأنها كانت

حبلى، فتضرر الجنين بسبب سقوطها ذاك... فماتت، حتى انني لم أكن هناك في ذلك الحين.» ونطق صوته بالمرارة. «لم اكن هناك قط، فقد كنت مشغولاً جداً كنت في أول عمل عام أزاوله وكان عليّ ان استمر في الأسفار، تاركاً إياها بمفردها أياماً طويلة، كانت تشتاق إلى والدتها، ولم يكن لها اصدقاء في مدريد، كانت وحيدة.»

همست تسأله: «كيف تعرفت اليها؟»

«انها من قريتي من منطقة كاستيل... وقد عرفتها منذ ولادتها، فقد كان شقيقها برناردو احسن صديق لي في المدرسة، كنا في السابعة من عمرنا عندما ولدت دومنغا، أول فتاة في أسرته، فكانت والدتها بالغة السعادة كان لها خمسة صبية فكانت لهذا متلهفة إلى فتاة، فجاءت دومنغا، وكانت رائعة الجمال أيضاً حتى وهي فتاة صغيرة، لقد قررت منذ البداية ان اتزوجها، وقد كنت أقول لكل شخص انني سأتزوج دومنغا عندما اكبر.» وقد احب شقيقها برناردو هذه الفكرة، فقد كان يريدني صهراً له.

ابتسمت ايرينا وقد تأثرت لصورة صبيين صغيرين يخططان لمستقبلهما كصهرين، وسألته: «متى حدثت دومنغا عن الزواج؟»

«طوال وقت نشأتنا، وحالما تركت المدرسة طلبتها رسمياً للزواج، كانت في السادسة عشرة، ولكن والدتها قالت انها ما زالت صغيرة السن، وكان الحق معها طبعاً، وهكذا جعلتنا ننتظر إلى ان بلغت دومنغا الثامنة عشرة.»

اخذت ايرينا تفكر في ذلك، إذا كانت زوجته في الثامنة عشرة، لا بد انه هو كان في الخامسة والعشرين، انه لا ينفك

يتحدث عن مبلغ صغر سن دومنغا بينما هو نفسه كان صغير السن أيضاً. كان اصغر كثيراً من ان يواجه تلك المحنة الهائلة، فان فقدان الحبيب هو دوماً أمر صعب، ولكنه اكثر صعوبة عندما يكون المرء فتّياً لم يعرف قلبه احزان الحياة بعد، خصوصاً إذا كان المرء يشعر بأن الذنب في ذلك ذنبه هو.

عاد استيبان يتمتم وهو يتأمل قهوته: «كانت ماتزال صغيرة جداً.»

فقالت: «فتيات اسبانيا يتزوجن صغيات السن عادة.» قالت ذلك وهي تتساءل عما إذا كان يلوم نفسه لأنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها مواجهة شعوره بالذنب.

اقبلت ليديا ترفع الأطباق وتسألهما ان كانا يريدان حلوى.

وعندما لم يستطيعا ان يقررا ما يريدان، سألتها: «هل احضر لكما اثمار التين؟» وأومأ الاثنان بالقبول.

عندما ذهبت ليديا لتحضر التين، سألته ايرينا: «هل كان لزوجتك عمل تقوم به في مدريد؟»

«كانت تعمل في البيت خائطة ملابس، لم تكن ماهرة، ولكنها كانت تصنع أشياء بالغة الجمال... فقد تعلمت في المدرسة التطريز والزركشة وصنع الدانتيل باليد، كانت تصنع أشياء غالية الثمن فتبيعها في متاجر مدريد النسائية، وكانت تقبض ثمنها مبالغ حسنة، ولكن ذلك كان يعني انها تشتغل وحدها في البيت، ولكننا كنا في السنة الأولى من الزواج سعيدين جداً، ثم حصلت على ترقية، ثم اخذت وظيفتي تأخذ المزيد من وقتي، فكانت دومنغا احياناً

تذهب إلى بيت أهلها لتمكث معهم، فابتدأنا نتشاجر، لقد كانت اصغر من ان تطيق الإبتعاد عنهم.»

قالت ايرينا برقة: «كنتما صغيرين.»

نظر اليها بعينين كئيبتين: «كنت اكبر منك الآن بحوالي الخمس سنوات.»

فقالت: «بل أربع سنوات.»

بدا الجفاء في عينيه: «ولكنك لم تبلغي الواحدة والعشرين بعد.»

فاحمر وجهها، وابتسم وهو ينظر اليها بحرارة، قبل ان تعود ملامحه إلى الاكتئاب مرة أخرى.

«عندما حملت دومنغا كانت في العشرين من عمرها، وكنا قد اتفقنا عند الزواج، على ان نرجيء إنجاب الاطفال لفترة، حيث اننا كنا مانزال فقراء تماماً، لقد كانت تعلم انني لا أريد ان أبدأ بإنشاء أسرة في ذلك الوقت، اظنها تعمدت ان تحمل لكي تجعلني أبقى في البيت، ولكن هذا لم يحصل، لقد ذهلت عندما اخبرتني بذلك وثار غضبي، لأنني كنت خائفاً... كانت حياتنا موفقة تماماً، ولكن بيتنا كان بالأجرة وعلينا أن نكون حذرين بالنسبة للنقود، وهذا ما جعلنا نتشاجر في الوقت الذي كانت فيه بحاجة إلى مساندتي.»

ومسح وجهه بيده وكأنه يحاول ان يمحو ما يشعر به من ذنب، وهو يقول: «كنت وغداً أنانياً.»

لم تعرف ايرينا ما تقول، فأخذت تنظر إليه بحيرة كان يتألم إلى حد كبير، ولكن ماذا يمكن ان يقوله شخص لرجل يحمل ضميره هذا العبء من الشعور بالذنب؟ وشعرت بالعجز عن قول أي شيء.

بعد لحظة تابع يقول بخشونة: «اخذت منذ ذلك الحين، ابذل جهدي في العمل، لأننا سنكون بحاجة إلى المزيد من المال عند مجيء الطفل، وكانت دومنغا في شهرها السادس عندما ارسلتني مؤسسة كاسبيان الدولية إلى اميركا في مهمة تستغرق شهراً كاملاً وذلك لدراسة طرق التسويق الاميركية، كان بامكانها ان تأتي معي، ولكنها لم تقبل، كانت تخاف من الطائرة، كما كانت متوترة الأعصاب، ويكفي حياة الضياع التي كانت تمضيها في مدريد، وهكذا لم تستطع مواجهة فكرة السفر إلى اميركا. كما كانت خائفة من ان تنجب في الطائرة ما جعل السفر يبدو لها شيئاً مرهقاً للغاية. وهكذا بقيت في البيت، وبينما كنت انا في نيويورك، وقع لها ذلك الحادث، ففقدت الطفل ثم...» سكت وقد اظلم وجهه. «عدت إلى الوطن على الفور، طبعاً، ولكنها كانت ماتت قبل وصولي، اما اهلها فلم يتكلموا معي منذ ذلك الحين، ولقد حملوني مسؤولية ذلك، ورفضوا حضوري الجنازة، دفنوها في أراضي اسرتها في القرية، لم يقبلوا دخولي إلى بيتهم اثناء الجنازة، لقد تجاهلوني، اما والدتها فلم تنسها قط، فقد كانت دومنغا المفضلة لديها بين اولادها إذ كانت الابنة الوحيدة، كما انني لم أعد أرى برناردو شقيقها منذ ذلك الحين، فقد شعر ان الذنب ذنبه لقبوله ان أتزوج شقيقته.

قالت ايرينا باحتجاج: «هذا ليس عدلاً أبداً، فانت لم تكن مسؤولاً عما حدث... حتى ولو كنت بقيت في قريتك واشتغلت بالأرض، فما كان بإمكانك ان تبقى بجانبها طوال النهار خوفاً من ان يحدث لها شيء، كان يمكن ان يحصل لها ذلك الحادث في أي مكان وأي وقت، دون ان يكون الذنب ذنبك.»

قال بخشونة وقد بان العناد على وجهه: «لقد تزوجتها وابعدتها عن أهلها، وهذا جعلها غير سعيدة، ولهذا كان الذنب ذنبي.»

اخذت ايرينا تتساءل عما جعله يخبرها بكل هذا، ولاذت بالصمت بعد ان أدركت عبث الجدال معه، لقد عاش استيبان طوال السنوات الماضية والشعور بالذنب يسيطر عليه ما اصبح طبيعة ثانية فيه، فهو لن يتخلى عنه بسهولة.

لقد فسر هذا اشياء كثيرة... الجو الكئيب المحيط به، غضبه الداخلي من نفسه، شروده...

أكلا التين الذي احضرته ليديا اليهما والذي كان يسبح في القشدة ومغموراً باللوز المحمص، وكذلك احضرت لهما ليديا قطعاً من حلوى طرية مصنوعة بالعسل والجوز والقرفة كانت ايرينا لم تأكلها منذ سنوات.

قالت ليديا: «لقد صنعتها بنفسي، وهي سهلة الصنع تماماً وساخبرك فيما بعد بطريقة صنعها، أما الآن فعلي ان اذهب إلى ذلك الزبون الذي ينظر حوله فارغ الصبر، فقد تأخر جوان في تجهيز طعامه.»

عندما أسرعت المرأة مبتعدة، نظرت ايرينا إلى ساعتها: «آه، انظر إلى الوقت، يجب ان اذهب الآن وإلا فلن اكون صالحة للعمل صباح غد.»

«هل يعجبك العمل في قسم الترجمة؟»

«كثيراً جداً، ان النظر اليهم وهم يعملون هو شيء رائع، كما انني مستمتعة بالترجمة، ولكنها متعبة جداً إذ عليّ توخي التركيز البالغ.»

«لا بد انه كذلك، ولكن فكري في مدى تحسن لغتك

الانكليزية، ان حضورك إلى لندن هي فكرة جيدة جداً، اظنك اشتغلت في صحيفة كاسبيان في باريس؟»

فأومأت قائلة: «نعم، ففي عطلة العيد، حصل لي والدي على وظيفة فيها، وكانت شاقة حقاً، ولكن لغتي الفرنسية هي افضل كثيراً من لغتي الانكليزية.»

«ان انكليزيتك تتحسن بشكل جيد.» قال لها ذلك وهو يبتسم لها برقة فشعرت بخفقات قلبها تتسارع.

عندما يبدو بهذا الشكل، يكون بالغ الجاذبية وتمنت لو يبقى دوماً بهذه الرقة، وألا يعود ذلك الظل الكئيب ليغطي ملامحه مرة أخرى.

تقدمت ليديا من مائدتهما تسألهما: «حسناً، هل استمتعتما بالطعام؟»

حين شكراها على الطعام وحسن ضيافتها قالت: «حسناً، يجب ان تذهب يا استيبان إلى المطبخ لتودع جوان، انه يريد ان يتحدث اليك، فنحن لا نكاد نراك. سأحضر لك مزيداً من القهوة يا ايرينا واتناولها معك، وبإمكان فتاتي ان تقدم الحلوى إلى الزبائن اثناء ذلك.»

ذهب استيبان إلى المطبخ مبتسماً لايرينا وهو يتركها، بينما احضرت ليديا القهوة وسكبت لنفسها فنجاناً ثم جلست إلى المائدة امام ايرينا.

«والآن، اخبرني عن نفسك، من أي منطقة في اسبانيا جئت؟»

حدثتها ايرينا عن المزرعة ووالدتها وشقيقيها وجبال الأندلس... كما تحدثت ليديا عن مدينتها والتي كانت قرب برشلونة. «ولكن استيبان وجوان نشآ معاً في قرية واحدة.»

ورمقت ايرينا بنظرة جادة. «وبالمناسبة سمعت رغماً عني استيبان وهو يحدثك عن دومنغا... كان ما حدث هو شيء محزن جداً، ولكن هذا كان منذ سنوات طويلة... سبع أو ثماني سنوات، كما اظن، وكان عليه أن ينسى ذلك الآن. فوقوع هذا الحادث لها اثناء غيابه لم يكن ذنبه هو، ولكن اللوم كله وقع عليه، ويقول جوان ان أسرتها تصرفت بشكل سيء جداً نحوه.»

قالت ايرينا مترددة: «وهذا ما يبدو لي.» كان صوتها منخفضاً إذ شعرت بأنها ما كان ينبغي ان تتحدث عن حياة استيبان الخاصة من وراء ظهره، وقد لا يعجبه ذلك منها لو انه علم بذلك.

قالت ليديا وهي تخفض من صوتها وتزيد من اقترابها منها: «كانت فتاة مدللة جداً، لأنها الفتاة الوحيدة بين أخوة ذكور ووالدين، كلهم شغوف بها، كانت جميلة، وتلك كانت المشكلة، فلم تستطع قبول الحياة الحقيقية بعد ان نشأت وكأنها أميرة، أرادت ان يدللها استيبان ويربت على رأسها طوال الوقت، كما يفعل افراد أسرتها... لم تستطع ان تفهم ان عليه ان يعمل، كانت تريده بقربها على الدوام.»

«ربما كانت ستنضج في النهاية عندما يصبح لديها طفل.» قالت ايرينا ذلك فأومأت ليديا، وإذا بعينيها تتحولان باتجاه المطبخ، فوقفت وهي تقول: «هوذا استيبان قادم، الأفضل ان اذهب إلى عملي، لقد تشرفت بمعرفتك يا ايرينا، وأرجو ان نراك مرة أخرى.»

أخيراً عادا إلى المدينة بالتاكسي إذ لم يشأ استيبان العودة إلى سيارته في هذه الساعة المتأخرة من الليل، مشياً

على الأقدام، قائلاً: «سآتي لأخذها صباح غد ولن يحدث لها شيء هنا.»

وأصر على ان يوصل ايرينا إلى داخل المبنى حيث الشقة ثم وقف يودعها امام المصعد.

قالت له: «شكراً لهذه الأمسية الرائعة لقد أحببت اصدقاءك، وسررت جداً بتناول الطعام الاسباني، ان جوان طاه ماهر.»

نظر اليها مبتسماً: «انني مسرور لاستمتاعك بالعشاء.»

دخلت ابتسامته هذه إلى قلبها، فألقت عليه نظرة طافحة بالمشاعر وقد تسمرت مكانها لا تتحرك وقد توهج وجهها.

نظر اليها استيبان طويلاً وعيناه تتألقان بعنف، ثم مال عليها ناظراً إلى وجهها المتوهج بعينين نهمتين.

مضت لحظات صمت كانت الأعين هي وحدها التي تتكلم... ولكن استيبان كان هو الذي أنهى هذا الموقف وهو يتراجع متأوهاً: «كلا... لا استطيع... كلا يا ايرينا، ألا تستطيعين ان تفهمي ان هذا مستحيل؟ لا يمكنني ابداً ان احب شخصاً آخر... ليس لي الحق في ذلك... لماذا تظنينني حدثتك عن دومنغا؟ يجب ان تدركي صعوبة هذا الأمر...»

ثم دفعها يبعدها عنه، بينما استدار يجتاز الردهة إلى، حيث ابتلعه الظلام.

الفصل الثامن

كان يوم عرس هيزل مشمساً، انما كثير الرياح، وهي تترجل من سيارة الليموزين التي احضرتها ومعها والدها، إلى حيث يعقد زواجها على بييت، نفخ الهواء نقابها الأبيض كاشفاً عن وجهها بينما تنورة ثوبها تلتف حول جسدها، وركض شاب كان يصور الحفلة بالفيديو، ركض نحوها كيلا يفوته تصويرها بهذا الشكل، وهو يضحك وعندما رأته هيزل اخذت تضحك هي الأخرى، وهي تتمسك بنقابها بيد، بينما تمسك باليد الأخرى باقة الأزهار البيضاء وعندما عادت تسير مع والدها لتدخل قاعة الاحتفال، اخذت ترتجف باكية.

نظر اليها والدها بذعر: «ماذا حدث، يا عزيزتي؟»

«لا شيء، هذا من فرط سعادتي.»

فضحك والدها شاعراً بالارتياح: «آه، هل هذا هو السبب؟ يا لك من فتاة مضحكة احياناً... ظننتك مريضة.»

كانت من فرط الحساسية والتوتر بحيث كانت تضحك وتبكي لأتفه الأسباب، لم تشعر في حياتها قط بمثل هذا التوتر والسعادة.

وأمامها كان بييت واقفاً ينتظرها، أنيقاً في بذلته، وأشعة الشمس تنساب من خلال زجاج النافذة لتتألق على شعره الأشقر الملمع، كان نيكولاس كاسبيان بجانبه، وكان اطول منه قليلاً واشد عضلاً... ولكن هيزل لم تكد تلحظه،

فقد كانت تنظر إلى بييت وقلبها في عينيها، فقد أمضت الشهور تستعد لهذا اليوم، وها هي ذي الآن تشعر بأنها لم تعد تستطيع احتمال قوة المشاعر التي تغلي في اعماقها، عزفت الموسيقى لحن النصر، والتفت الجموع ينظرون اليها باسمين بينما هي لا تكاد تميز وجوههم اثناء سيرها بينهم، وكان نقابها ما يزال مسدلاً على وجهها، مخفياً دموعها.

كانت روز احدى وصيفتيها، ومن حسن الحظ انها لم تكن بحاجة إلى كرسي بعجلات للتنقل، وكان لثوبها الجميل الأزرق، بلون عينيها، شال عريض على الكتفين يغطي الرباط الذي يشد كتفها الجريح، كانت شاحبة الوجه وبالغة النحول، وفي ما عدا ذلك الذي يذكر بحادثة اختطاف الطائرة، بدت عادية تقريباً.

كان دانيال وحده هو الذي يعرف ان روز كانت تعاني من كوابيس اثناء النوم، فرغم ان جروحها الجسمانية كانت تسير حثيثاً نحو الشفاء، إلا ان هناك جرحاً غير مرئي كان شفاؤه يستغرق وقتاً اطول.

كانا سيذهبان في إجازة منحها نيكولاس لهما، ولم يكونا قد قررا بعد أين سيذهبان.

كان دانيال يريد ان يذهب إلى الهند الغربية أو موريشيوس، ولكن روز أرادت ان تمضي بعض الوقت في الريف الانكليزي، لا أن تعود إلى الشمس الحارة، فحين كانت في ذلك الفرن في الطائرة المخطوفة والعرق يسيل من ظهرها ملصقاً ثيابها بجسمها، كانت تفكر طوال الوقت بالحقول الخضراء وبرودة الجو المنعشة وخرير المياه في

الجداول، ورائحة الحشائش والأمطار الانكليزية، كان هذا ما تريده الآن... شيئاً من الاطمئنان والأمن، أسبوعاً أو اثنين تمضيهما بكسل واسترخاء.

واثناء وليمة حفلة الاستقبال حيث كانا يتناولان الطعام، وهي تراه حائراً: «هل لديك مانع من ألا نستمتع بأشعة الشمس اثناء الإجازة؟»

هز رأسه وعيناه ممتلئتان حباً: «هذا ما يناسبني تماماً، إلى اين سنذهب؟ إلى فندق في الريف الغربي؟»

«كلا، لا أريد ان اقيم في فندق، أريد مكاناً هادئاً، ربما يمكننا ان نستأجر كوخاً في مكان بعيد... سنبحث في ذلك الأمر غداً.»

كان نيكولاس قد سمع شيئاً من حديثهما، فالتفت نحوهما واضعاً مرفقيه على غطاء المائدة الأبيض، وقاطعهما قائلاً بهدوء: «ان لدى والدتي كوخاً صغيراً خارج لايم ريجي مباشرة، يا روز... إذا كان هذا يهمك، لقد تركه آخر مستأجر منذ أسبوعين ووالدتي تفكر في بيعه ولهذا لم تؤجره مرة أخرى. فهو خالٍ حالياً، يمكنكما ان تسكنا فيه دون مقابل، المدة التي تريدانها، ليس هناك جيران، وحوله حديقة مسورة، ويفصله عن البحر طريق ضيق ولكن هناك حوانيت ومقهى على مسافة قريبة منه.»

تبادل دانيال وروز النظرات، ثم قالت روز: «هذا لطف كبير منك، يا نيكولاس.» وكانت فوجئت بهذا الكرم الذي لم تكن تنتظره منه، فعادت تقول: «هل انت واثق من ان والدتك لا تمانع في ذلك؟»

فهز رأسه: «بل هذا سيسرها جداً عندما اخبرها به، فقد

كانت سمعت كل شيء عن بطولاتك وهي مليئة بالاعجاب بك، وقد تابعت كل احداث الطائرة المخطوفة على التليفزيون.» وتابع ضاحكاً، ثم انها واحدة من جماهير والدك المعجبين، أيضاً.»

قالت روز ضاحكة: «السنا كلنا كذلك؟» ثم قالت بجد: «أتمنى فقط لو أعرف أين هو الآن، مازلنا لم نسمع منه شيئاً... اظنه في فيتنام.»

قال نيكولاس يطمئنها: «انه هناك في مكان ما، ولكنه غير مستعد بعد لارسال ما عنده، انه سيظهر عاجلاً أم آجلاً.»

ونظر اليها برقة. «هل عليّ ان اخبرك بأن لا تقلقي عليه؟ لا اظن ذلك، فأنت تعرفين والدك اكثر من أي شخص آخر، انه يقوم بدوره حسب اجتهاده الخاص، وعلينا ان نرضى بذلك إذا كنا نريده ان يكتب عندنا.»

تنهدت قائلة: «هذا صحيح، وشكراً على عرضك البيت علينا على كل حال، لم أكن اعلم ان لدى والدتك بيتاً في انكلترا.»

«انها لم تستعمله منذ سنوات، وأنا اعتني به لأجلها، وكما قلت، كان مؤجراً لمستأجرين جيدين، وقد احتفظت به لأنها كانت تحب مكانه وكانت تفكر دوماً في المجيء إلى هنا لزيارة طويلة، ولكنها لا تسافر كثيراً الآن، فهذا اصبح يرهقها، ولهذا قررت ان تبيعه اخيراً، فهي تقول ان من غير المحتمل ان تستعمله بعد الآن، فلماذا تحتفظ به.»

قطب نيكولاس جبينه مفكراً، ثم قال: «بالمناسبة، اثناء وجودكما في البيت ذاك، قد يحضر وكيل الأملاك شارين يريدون رؤية البيت... وهذا ليس مشكلة أليس كذلك؟»

ترددت روز، ثم قالت: «كلا طبعاً.» ولكنها اخذت تتساءل عما إذا سيكون بإمكانها المحافظة على نظافة المنزل طوال اقامتها فيه، وهذا سيكون ضرورياً مادام أناس غرباء سيترددون عليه في أي وقت.

أخذ نيكولاس ينظر اليها وقد أدرك ما تفكر فيه: «لا تدعي ذلك يقلقك فلا حاجة بك وبدانيال إلى ان تكونا موجودين عندما يأتي الوكيل مع الزبون، طبعاً، ثم اتراني قلت اننا ندفع أجراً لامرأة للمجيء إلى البيت عدة مرات في الاسبوع لتقوم بأعمال التنظيف؟ انها ستقوم بكل اعمال المنزل لأجلك، يا روز، فأنا لا اريدك ان ترفعي بيدك حتى ممسحة الغبار، انها ستطهي طعامكما أيضاً، إذا شئتما، انها امرأة طيبة جداً، السيدة بيتي تلك، ولكنني لا أريد ان اضغط عليك بقبول ذلك إذا لم تكوني تريدينه حقاً، فهذه إجازتك انت، فكري في ذلك، وناقشيه مع دانيال ثم دعيني اعرف النتيجة متى شئت.»

تمتمت روز تقول: «هذا جميل جداً منك... اشكرك عليه.» بينما أومأ دانيال برأسه موافقاً.

كانت جينا تستمع إلى حديثهم اثناء تناولها طعامها المكون من سمك السلمون المدخن والكافيار، هذا إلى السلطة والفاكهة، لأول مرة يبدو نيكولاس غافلاً عنها، ما جعل بإمكانها النظر اليه دون الخوف من ان يلتفت فجأة فيبادلها النظرات، كان مزيجاً يبعث على الحيرة، فهو تارة رجل عنيف مليء بالطاقة والحيوية، ومنافس ضاري، وتارة أخرى يبدو على العكس تماماً، فهو مفكر حساس سخي شهم، كان وكأن في اعماقه شخصيتين متناقضتين،

لعله مثل دكتورجيكل والسيد هايد، المشهور... وابتسمت لهذه الفكرة. «شاركينا النكتة التي تضحكك، يا جينا.» فوجئت جينا من كلام نيكولاس بعد ان التفت اليها فجأة فرأى ابتسامتها.

«آه، لا شيء هناك.»

نظر اليها وقد ضاقت عيناه: «اتعلمين؟ ذلك أول دليل.»

«وما هو؟»

«ضحكت للاشيء، سرعان سيصبح لعقلك أجنحة.»

أسبلت اهدابها ضاحكة بسخرية. وما لبثت ان قررت ان عليها تغيير الموضوع: «كان عرساً رائعاً، أليس كذلك؟»

فقال ببطء: «هل جعلك هذا تتمنين ان يكون لك عرس مثله؟»

احمر وجهها قليلاً: «هل نسيت انني كنت متزوجة؟»

«أترى ذلك كان كافياً بالنسبة اليك فلم تعودي تجروئين على المحاولة مرة أخرى؟»

قالت بمرح مصطنع مرغمة نفسها على الضحك: «ليس حالياً، شكراً.»

كان يراقبها كهر يراقب حجر فأر.

«ألم يكن زواجك الأول سعيداً، يا جينا؟ وهل هذا هو السبب في عدم رغبتك في الاقدام على الزواج مرة أخرى؟»

قالت بحدة وقد بدا العداء في عينيها: «بل كنت سعيدة جداً.» وفي هذه الاثناء تعالى التصفيق والصفير فنظرا حولهما بدهشة وإذا بهما يريان العروسين واقفين معاً.

قال نيكولاس: «انهما سيقطعان كعكة الزفاف.» نقلت جينا كرسيها لتتمكن من رؤية العريس والعروس وهما

يمسكان بسكين كبير لقطع كعكة زفاف بثلاث طبقات، واثناء ذلك، بدأ عدد من المصورين، هواة ومحترفين، يأخذون الصور لهما، كما اخذ يدور حولهما رجل علق في كتفه آلة تصوير فيديو.

قالت جينا لروز وهي تقلب شفتيها: «ما اكثر التقاليد التي تتعلق بالأعراس.»

فأومأت روز موافقة: «هذا ما أراه، ولم يكن هذا قد خطر لي من قبل، ولكنني اظنك على حق... فما اكثر تقاليدنا.»

ألقت روز بنظرها نحو ايرينا عبر المائدة والتي كانت تأكل طعام العرس بهدوء تام: «هل لديكم الكثير من التقاليد التي تتعلق بالأعراس في اسبانيا، يا ايرينا؟»

أومأت ايرينا بخجل: «نعم، مثلها هنا ان لم يكن اكثر.» فقد كانت اسبانيا وما تزال بلداً غنياً بالتقاليد، ولم تستطع ايرينا ان تتذكر كل التقاليد المتعلقة بالأعراس.

سألتها جينا: «هل ستعودين إلى بلدك لتتزوجي يا ايرينا؟»

ترددت ايرينا ثم قالت: «لم افكر في ذلك قط من قبل.» ولكنها كانت تعلم ان والدتها وشقيقيها سيستاؤون جداً لو انها لم تتزوج في بلدها، فقد كانت قريتها متشبثة بالتقاليد بعنف.

وجاء صوت استيبان العميق يقول: «بل ستذهبين طبعاً.»

تقابلت عيناها المجفلتان بعينيه عبر المائدة، وشعرت بأعين الآخرين تحدق فيهما بفضول، كانت قد اصبحت تعرف الآن كثيراً من هؤلاء الأشخاص بوجوههم واسمائهم ولكنها مازالت تشعر بشيء من العي في حضورهم

خصوصاً عندما يكون نيكولاس كاسبيان حاضراً، فقد كان رجلاً بالغ الأهمية بثرائه وسلطته وابتعاده عن عالمها، حاولت ان تتصوره في بلدها، في قريتها، فلم تستطع، لم تشعر انها تتلاءم مع عالم نيكولاس، وذلك بعكس استيبان، كما أدركت فجأة.

كان استيبان هنا في انكلترا وكأنه في بيته، وطبعاً سيبدو الشيء نفسه في قريتها في اسبانيا، فهو لديه القدرة على التنقل من عالم إلى آخر بينما يبقى طبيعياً في كل منهما.

ولكن تحت طبيعته المرنة المتكيفة تلك، يوجد طبيعة أخرى له، طبيعة عنيدة كالصخر، وهو حبه وحزنه لموت زوجته، لا شيء يمكن ان يغير ذلك، فاستيبان لن يقع أبداً مرة أخرى في الغرام، أو ينسى الظلمة التي تملأ قلبه.

لقد اخبرها هو بكل ذلك، وبقسوة، فقد كان يحذرها، وتوهج وجه ايرينا وهي تدرك معنى ذلك... فقد كان استيبان يعلم انها تميل إليه فأرادها ان تعلم انها ستضيع وقتها فقط... وكان صادقاً معها، بذلك ورقيقاً، ولو كان لديها أي عقل لنسيته مع كل ما يتعلق به.

قالت روز وهي تبتسم لها: «اظن والدتك تتوقع منك ان تتزوجي في بلدك، أليس كذلك؟ انني سأزور مزرعتكم يوماً ما، يا ايرينا، وأتعرف إلى والدتك مرة أخرى، فأنا لا اتذكرها إلا بشكل مبهم ولكنني اعلم بأنني كنت أحبها.»

نظرت إليها ايرينا شاكرة: «انها ستسر جداً برؤيتك، يا روز، لقد قالت هذا في آخر رسائلها، ان بيتنا صغير جداً واظنه بدائي جداً بالنسبة لمستواكم... فليس لدينا مجاري

مياه عامة، وغالباً ما تنقطع الكهرباء، ولكنك ستكونين عندنا على الرحب والسعة وسيكون أهلي سعداء جداً، برؤيتك.»

ابتسمت لها روز بحرارة، قد تقوم هي ودانيال برحلة إلى اسبانيا بدلاً من البقاء في انكلترا، فما اجمل ان تقابل والدة ايرينا وشقيقيها، وترى المزرعة الصغيرة هناك حيث نشأت ايرينا، فهذا سيساعدها على زيادة التعرف إلى شقيقتها، فقد كانت حياتيهما مختلفتين للغاية، ولكن والداهما واحد، ودمهما واحد، وحبها لايرينا كان يزداد يوماً بعد يوم.

واذا بها ترتجف وتغمض عينيها لحظة قصيرة، ذلك ان هذه الرحلة تعني السفر بالطائرة، وروز لا تحتمل السفر جواً، حالياً. فهي لم تحب ان تخبر دانيال بالسبب الحقيقي لتفضيلها قضاء إجازتهما هذه في انكلترا. لقد كانت شعرت بالحنين إلى الريف الانكليزي اثناء وجودها في الطائرة المختطفة في قبرص، هذا صحيح، ولكن ذلك لم يكن كل الحقيقة، ذلك انهما إذا ذهبا إلى الهند الغربية أو موريشيوس فسيكون ذلك بالطائرة، وهذا ما لا تستطيع روز مواجهته. لقد كانت تعلم انه اذا كان عليها ان تسير نحو الطائرة، فسيتملكها من الذعر ما يجعلها تهرب بعيداً وهي تصرخ أو تجهش بالبكاء وهو ما سيكون أمراً مخجلاً حقاً، وإذا ما حدث هذا فلن تستطيع بعد ذلك قط ان تواجه نظرات دانيال، وكيف ستتمكن من متابعة عملها كمراسلة خارجية اذا هي اصبحت تخاف من الركوب في الطائرة؟

كان هذا يعني نهاية كل ما كافحت لأجله طوال هذه

السنوات، كما انها كانت، سراً، خائفة مما قد يؤثر هذا على علاقتها بدانيال.

آه، نعم، فهو سيكون سعيداً جداً إذا هي تركت مهنتها، فهو يريدها أن تبقى معه في لندن حيث يعملان معاً في المكتب ويعودان معاً إلى بيتهما كل مساء... ولكن هذا لن يجعلها سعيدة... بل بالعكس، فقد كانت تعلم انها ستشعر بالمرارة المتزايدة لخسارتها ما كان دوماً أهم شيء في حياتها، وقد تأخذ في لوم دانيال، شاعرة بأنه كان عدوها لأنه أرادها ان تتخلى عن حلمها في ان تكون بمستوى والدها يوماً ما.

بعد انتهاء الوليمة، اخذ المدعوون يجلسون إلى بعضهم البعض في مجموعات.

اخذت ايرينا تراقب العروسين وعلى شفتيها ابتسامة حسد، كم يبدوان سعيدين، لم تر هيزل قط من قبل بمثل هذا التألق والجمال، ورأت استيبان يتحرك ناهضاً من مكانه، فتمنت لو يأتي ويجلس بجانبها، ولكنه وقف، وبدون ان يلقي عليها نظرة، توجه إلى حيث كانت تجلس فتاة شقراء.

خفضت ايرينا بصرها ويداها ترتجفان في حجرها، ليس لها أي حق على استيبان، لكي تشعر بالغيرة عليه، أو الألم من تصرفاته، فهو ليس ملكاً لها، ويمكنه ان يرافق من يشاء من النساء.

لقد كانت رأت هذه الفتاة الشقراء من قبل... ماذا كان اسمها؟ فاليري، وهي تشتغل في قسم التحرير، وقد رأتها مرة قبل الآن مع استيبان، ولكنها الآن ملفتة للنظر بشكل بالغ، ليس فقط لشعرها الأشقر وعينيها الخضراوين الساحرتين، أو حتى لقوامها الجميل، بل للطريقة التي كانت

تجلس فيها، فكل الرجال يحدقون إليها اذا هي مرت بجانبهم، هل يراها استيبان ملفتة يا ترى؟

ونظرت إليها ايرينا من خلال اهدابها المسدلة، كان يبدو ان الفتاة تكن لاستيبان شعوراً بالمودة كما رأتها آخر مرة عندما كانا معاً، ولكن هذا كان الآن اكثر وضوحاً، فقد كانت تقترب منه بصورة فاضحة.

اخذت ايرينا ترشف قهوتها الباردة نوعاً ما، شاعرة بالكآبة، متى ستتمكن من العودة إلى البيت؟

اقبل فيليب سليد متوجهاً نحو جينا، ولكن قبل ان يصل اليها كان نيكولاس يمد يده إلى جينا ومن ثم نهضت ترافقه إلى حيث توارتا بين المدعوين دون ان ترى فيليب الذي وقف جامداً في مكانه وهو ينظر في أثرهما عابساً، لم يعد يرى جينا كثيراً مؤخراً حتى انه اخذ يتساءل عما إذا كانت تتجنبه عمداً.

كانت روز ودانيال قد لاحظا ما جرى فتبادلا الابتسام، وقالت روز ساخرة: «آه، مسكين فيليب.»

فكرر دانيال كلامها: «مسكين فيليب، لا بد انه أدرك الآن انه لا يمكن ان ينتصر... وقد يذعن للأمر، فلا احد يمكن ان يهزم نيكولاس كاسبيان، وإذا تيسر ذلك لأي شخص، فلن يكون ذلك الشخص هو فيليب، كما اظن.»

قالت روز متأملة: «ولكن قد تكون جينا هي المنتصرة.»

هز دانيال كتفيه شبه عابس: «ربما، ولكنها امرأة وبالنسبة إلى رجل مثل نيكولاس تميل النساء إلى الإذعان له، لا محاربته، الرجال هم الذين يقارعون نيكولاس.»

فقالت روز: «بإمكان جينا أن تفعل هذا لو تحتم عليها ذلك.»

قال دانيال وهو ينظر إلى قوام جينا الرشيق وهي تسير بجانب نيكولاس: «اتظنين ذلك؟ انها تبدو اضعف من ان تتمكن من المقاومة.» تمتم بذلك بشيء من السخرية لاحظتها روز بوضوح، فقالت بجفاء: «انها امرأة.»

ضحك قائلاً: «هذا صحيح، فمثل هذا الشعر الأحمر الجميل، وتينك العينين الخضراوين، والفم الناعم... نعم انها امرأة لا شك في ذلك.»

نظرت روز إليه بإمعان: «لا احب الطريقة التي تتحدث بها عنها، إذ يبدو من لهجتك انك مهتم بها اكثر مما ينبغي.»

ضحك يغيظها بقوله: «انني لست أعمى.»

رفعت قبضتها مهددة فرفع يديه يظهر خضوعه، قائلاً: «كنت امزح فقط، فأنا احب ان تكون النساء اللاتي أريدهن صغيرات الأجسام سود الشعر حادات الطباع.»

فقالت: «لا تتحدث بصفة الجمع، فليس لك سوى امرأة واحدة يا دانيال، فإياك ان تنسى هذا.»

قال ضاحكاً: «نعم، يا سيدتي.»

ثم اكمل برزانة: «ولكن ما الذي جعلك تظنين ان جينا يمكنها ان تهزم نيكولاس بينما فشل في ذلك كل شخص.»

أجابت لاوية شفتيها: «لأنها تعرقل طريق نيكولاس.»

«هل ذلك لأنها امرأة؟ إياك ان تظني ذلك يا عزيزتي.»

قالت بهدوء: «انه عاجز لأنه يرغب فيها بشكل بالغ.»

فتح دانيال فمه ذاهلاً: «ما الذي جعلك تظنين هذا؟»

«لقد اخذت أراقبهما معاً، خصوصاً بعد عودتي، ان ما يدور بينهما واضح كالنهار.»

اخذ دانيال يحدق إلى حيث كان نيكولاس وجينا

واقفين، كان يحاول ان يجذبها قريباً منه ولكنها كانت تبتعد عنه، محولة وجهها إلى ناحية أخرى، كان وجه نيكولاس متوهجاً وشفتاه متوترتين عنفاً وإحباطاً.

قال دانيال: «حسناً، كنت اعرف ان نيكولاس معجب بها، ولكنني لم أدرك ان الأمر قد اصبح جدياً... فيالك من فتاة قوية الملاحظة، يبدو وكأنك على حق، فالنساء ماهرات في ملاحظة هذه الأمور.»

«اننا نلاحظ الأشياء اكثر من الرجال.»

فقال: «بعض الأشياء، ولكن هل جينا معجبة برجل آخر؟ وهل هذا هو السبب في تمنعها على نيكولاس؟»

رمقته بنظرة هازئة: «احياناً، اتساءل لماذا احبك، انت الخفاش الأعمى، ان جينا غير معجبة بأي رجل آخر، ان بإمكاني ان اقول ان نيكولاس كاسبيان يستحوذ على كل اهتمامها.»

هتف دانيال مقطباً: «آه، انها إذن لعبة منها؟ اتراها تريد ان تجعله يتزوجها؟ ستكون محظوظة فقد حاولت ذلك كثيرات من النساء الطموحات ففشلن، ذلك ان نيكولاس أسعد كثيراً بكونه أعزب من ان يستقر مع امرأة واحدة، اذ انه سيتزوج يوماً ما عندما يقرر ان الوقت قد حان ليحصل على وريث، ولكنه ربما سيختارها بالغة الثراء ذات أقارب رفيعي المراكز، فهو لن يكون زواج حب.»

«ربما كلامك صحيح، وانا على كل حال، لا اظنه يفكر في الزواج، فلو انه كان تزوجها في حياة السير جورج لحصل على صحيفة سنتنال كهدية العرس، ولكنه لم يفعل، رغم انه كان يبدي نحو جينا، اهتماماً كبيراً في ذلك الحين، ولكن بالنسبة اليها، انا واثقة من انها لن تتزوج أبداً نيكولاس

كاسبيان، انها لم تخبرني بذلك، ولكن بإمكاني القول ان الطريقة التي تعامل فيها نيكولاس تتصل بآل تيريل اكثر مما تتصل بخطة موضوعة لجعله يتزوجها، ان جينا امرأة من النوع الوفي، فقد احبت ذلك الرجل العجوز، ولم تنس قط الطريقة المفاجئة التي مات فيها، وما زالت غاضبة من نيكولاس لهذا الصراع، والطريقة التي انتصر فيها... وانا اعلم ان غضبها ازداد كثيراً للطريقة التي غير فيها نيكولاس الجريدة.»

بدت الكآبة على وجه دانيال: «معها حق في ذلك، فهذه كانت صحيفة جادة رصينة فتغيرت كلياً وأنا غير مسرور لهذا رغم انني توقعت ذلك منذ البداية، ان نيكولاس يشتغل في الصحافة لجمع المال فقط.»

«وأنت توافقه على ذلك؟»

«انني اقبله بصفته أمر واقع، فهو منذ تسلم الصحيفة، ابتدأ يعمل على جعلها واسعة الانتشار، وهناك طريقة واحدة لتحقيق ذلك... ان ينزل بها إلى مستوى الشارع حيث تباع بكثرة، ان الصحف الراقية تنجح من وراء الاعلانات وليس ارتفاع مستوى المبيع، وقد كسب معركة الانتشار، فحجم المبيع في ارتفاع دائم، اننا في طريقنا إلى المليونين يا روز، وجينا لا يمكنها ان توقف التقدم الآن كما انها لا يمكن ان تنتصر في قتال مع نيكولاس فهو بالغ الذكاء والقسوة.»

قالت روز: «ربما، ولكنك تتكلم عن إدارة العمل، وهناك انواع أخرى من الحروب وطرق أخرى من القتال، انني أراهن على جينا، واظنها تقوده إلى الجنون، ولكنها

تحرص على الاحتفاظ ببرودة اعصابها، وتلك هي الطريقة لربح المعركة، دع خصمك يهزم نفسه ولكن إياك ان تفقد برودة اعصابك.»

قال دانيال ببطء: «مسكين نيكولاس.» ولم يكن ثمة أثر للهزل في ملامحه، بل بدت عليه المفاجأة في الحقيقة، بما يقرب من الصدمة، واخذ يحدق في جينا وكأنه لم يرها قط من قبل في حياته، كان دانيال يراها فجأة على ضوء جديد.

دوماً كان معجباً بجينا تيريل، اعجب بها لوفائها لزوجها الراحل وجده من بعده السير جورج تيريل، وكانت روح دانيال الفرنسية تحبذ هذا الوفاء العائلي، فكان يرى جينا مثالاً للأنوثة حباً ووفاء.

كانت روز واعية لكل ما كان يجول في نفس دانيال، فقد كانت معرفتها الطويلة به قد جعلتها تفهم طريقته في التفكير، حتى انها اخذت تتساءل مرة عما إذا كان دانيال مفتوناً بجينا، بسبب صفاتها تلك، كانت واثقة من ان دانيال كان قد قارن بينهما هما الاثنتين، متمنياً، لو انها كانت تتحلى بصفات جينا.

لقد اكتشف لتوه أن جينا لم تكن تماماً تلك المرأة اللينة العريكة المطواعة التي كان يظنها وانها تشابه في القسوة والعناد نيكولاس كاسبيان.

شعرت روز بألم في كتفها فأجفلت، لقد ابتدأت تشعر بالتعب، فقد امتصت حفلة الزفاف هذه الكثير من طاقتها، ومن زاوية عينها لاحظت فجأة وجه ايرينا الصغير الشاحب، فعبست، لم يبد على ايرينا انها كانت مستمتعة بالحفلة، فقد انفض الجميع من حول الوليمة تاركينها وحدها دون احد

تتكلم معه، فهمست لدانيال تطلب منه ان يدعو ايرينا لتنضم اليهما إذ تبدو ضجرة للغاية.

كانت ايرينا ترتدي ثوباً يصل إلى كاحليها وهو احد أثواب روز إذ لم تستطع شراء ثوب جديد لنفسها لتحضر به العرس، ولاءمها الثوب تماماً إذ كانت وشقيقتها من نفس القياس.

سألها دانيال وهو يتجه معها إلى حيث كانت روز تجلس: «متى ستعودين إلى باريس؟»

«بعد أربع اسابيع، لقد ضاع الوقت بما حدث لروز من اختطاف طائرتها...»

«اتتوقعين أن يكون والدك قد عاد قبل ذلك؟»

«ليتني اعلم.» ونظرت إلى دانيال بقلق. «انه بخير، أليس كذلك يا دانيال؟ ألا تظن ان علينا ان نقلق لأجله؟ تقول روز انه اعتاد الغياب عن الأنظار بهذا الشكل اثناء عمله، وقد تمضي اسابيع قبل أن يعود، اتظنها على صواب؟»

«أنا واثق من ذلك، فروز نشأت مع والدها وهي تعرف جيداً انه لم يتعود أن يكتب أو يتصل هاتفياً كل عدة ايام، فهو هناك ليكتب عن فيتنام هذه الأيام، ولهذا فهو يحاول ان يستوعب من تلك البلاد قدر ما يستطيع، يا ايرينا، وهذا يعني ابتعاده عن كل شيء آخر، ان احدى مواهبه الكبرى التي تؤهله ليكون مراسلاً خارجياً، هي بعد نظره، وقدرته على نسيان نفسه وعالمه اثناء تركيزه على ما حوله، انني واثق من ان ديسموند مشغول عنا جميعاً، ومن ان ليس عنده فكرة أبداً عن انكما قد تقلقان لأجله.»

«ولكن، ألا تظن ان عليه ان يدرك هذا؟ أعني انه إذا كان يهتم بنا، ألا يعلم اننا سنشعر بالقلق لأجله؟»

«نعم، هذا نوع من الأنانية كما أراه، ولكن هذا ما جعل ديسموند متفوقاً في مهنته، فهو يتخلص، وبكل بساطة، من حياته الخاصة والناس، والذكريات، وهذا يجعله مستعداً لكل جديد يتلقاه.»

«هل كنت أنت كذلك عندما كنت مراسلاً خارجياً؟»

«نوعاً ما.»

«وروز؟»

فهز كتفيه: «لم تجد الوقت الكافي لاكتساب دقائق المهنة، ولكنني واثق من انها ستحصل على ذلك.»

تنهدت ايرينا: «حسناً، أرجو ان تكون على صواب، وان ديسموند ليس مريضاً أو في خطر.»

نظر دانيال اليها باسماً بعطف: «أنا واثق من انه بخير، يا ايرينا.»

فابتسمت له شاكرة له لطفه ورقته، ولكنها بعد لحظة، ومن فوق كتفه، التقت عيناها بعيني استيبان فأجفلت للبرودة الواضحة في وجهه، فحولت نظراتها عنه بسرعة.

عندما وصلا إلى حيث كانت روز تجلس، إذا بخادم الفندق يسرع وفي يده مغلف «هل الآنسة اوليفيرو هنا؟»

فوقفت ايرينا في طريقها مجفلة: «نعم، أنا هي... أنا الآنسة اوليفيرو.»

«مخابرة هاتفية لأجلك، يا آنسة، بحثنا عنك فلم نجدك، انها من الخارج، ويقولون انها كانت مستعجلة.»

تدخلت روز قائلة: «من الخارج؟ فيتنام؟»

فهز الخادم رأسه: «لا أدري مع الأسف فلست من تلقى الرسالة.»

تقدمت ايرينا ببطء تأخذ المغلف منه ثم تفتحها بأصابع مرتجفة بينما روز والآخرون يراقبونها، لم يحول استيبان نظراته عنها.

رأت ايرينا الكلمات التي كانت تعلو وتنخفض تبعاً لحركة اصابعها التي كانت ترتجف بشدة.

سألتها روز بصوت متهدج: «هل هي من ديسموند؟»

رفعت ايرينا وقد شحب وجهها واتسعت عيناها الكبيرتان: «كلا انها والدتي لقد ادخلوها المستشفى، يريدني رامون ان اذهب إلى هناك حالاً، لا بد ان الأمر خطير، يجب ان اذهب.» وكرشت الورقة بيدها وهي تحاول ان تفكر بوضوح: «يجب ان أجد طائرة... هل هناك طائرة اليوم؟ يجب ان اتصل هاتفياً بالمطار و...»

فقاطعها نيكولاس قائلاً: «ان طائرتي الخاصة جاهزة دوماً للسفر في أية لحظة، سأتصل بالطيار وأخبره بأن يأخذك إلى هناك حالما ينهي إجراءات الموافقة الرسمية، فلا حاجة بك للقلق على وسائل السفر، ان سائقي في الخارج وبإمكانه ان يأخذك إلى شقة روز لتحزمي امتعتك، وبعد ذلك يأخذك إلى المطار.»

ثم قطب جبينه. «ولكن لا ينبغي في الحقيقة ان تذهبي وحدك.»

استقام جسم روز عندما نظر نيكولاس اليها، وقد أدركت انه سيعرض عليها ذلك، فشحب وجهها لفكرة ركوبها الطائرة مرة أخرى... وكاد يشلها الخوف، ولكن ايرينا كانت شقيقتها، وهي الآن تحبها كثيراً، وهكذا تنفست بعمق، مستجمعة بقايا شجاعتها ثم قالت بصوت مبحوح: «سأذهب أنا معها طبعاً.»

قال دانيال على الفور، مقطباً حاجبيه: «كلا، انك لن تسافري مرة أخرى، حالياً.»

فقالت محتجة، محاولة ألا تبدي كراهيتها للذهاب: «ولكنني سأكون على ما يرام.»

فقال نيكولاس: «كلا، الحق مع دانيال ومن الغباء مني ألا اتذكر ما كنت عانيته، فحالتك لا تسمح لك بالسفر بالطائرة إلى اسبانيا.»

قالت جينا بهدوء: «سأذهب أنا معها، وهذا سيسرني جداً.»

قال نيكولاس مكشراً: «أنت؟»

فهمست ايرينا راجية ان يكفوا جميعاً عن الجدال ويدعوها تذهب، همست تقول: «ارجوكم ألا تزعجوا انفسكم، فأنا لست بحاجة إلى من يذهب معي.»

وببرودة تدخل استيبان قائلاً: «انها بحاجة إلى شخص يحسن اللغة الاسبانية، إذ عند وصولها إلى اسبانيا سيكون امامها أمور كثيرة عليها أن تقوم بها، ان عليها ان تسافر من مطار مالاغا خلال سييرا نافادا وأسرع طريقة لذلك هي ان تستأجر سيارة من المطار، ثم تسوقها خلال الجبال، ولكنها رحلة شاقة لا يمكنها القيام بها وحدها وهي بحالة القلق هذه، انني سآخذها بنفسي... اذا امكنكم الاستغناء عني عدة ايام.»

فغاص قلب ايرينا.

وانبسطت اسارير نيكولاس: «كان يجب ان افكر فيك منذ البداية، يا استيبان، سأهتم بمن يرعى عملك في غيابك، فلا تقلق، وشكراً لك، فهذا حل رائع.»

عادت ايرينا إلى الاحتجاج: «كلا، فأنا لا احتاج إلى مرافق، في الواقع، انني لست طفلة، وكما جئت إلى هنا وحدي، يمكنني ان أعود وحدي.» ذلك ان فكرة ذهاب استيبان معها قد أفزعتها.

قال استيبان: «لا لزوم للجدل فسأذهب معك إذ لا يمكنك السفر وحدك وانت في هذه الحالة من الكدر.»

قالت ايرينا وقد احمر وجهها قليلاً الآن ولمع في عينيها الغضب والضيق: «كلا، لا أريدك ان تأتي معي.»

«سآتي معك سواء شئت أم أبيت، فلا تضيعي وقتك في الجدل.» قال استيبان ذلك ببرودة، منتبهاً إلى ان عيون الحاضرين منصبة عليه ويستمعون إلى كل ما قيل، فسكتت ايرينا وهي تعض شفتها.

إذا كان مصمماً على القدوم معها، فهي لن تستطيع منعه... ولكن كيف ستحتمل مرافقته طوال تلك الساعات وحدها، وهي تعلم انه لم يأت معها إلا لأنه يراها طفلة بحاجة إلى حماية، وليس امرأة بحاجة إلى شيء منه مختلف جداً؟

الفصل التاسع

وصلت طائرة نيكولاس الخاصة بايرينا واستيبان إلى أسبانيا والوقت ما زال نهاراً.

كانت الشمس تغوص في البحر ناشرة الشفق في الآفاق عندما شرعا في رحلتهما بالسيارة على الطريق الساحلي الشديد الإزدحام والذي يبدأ من مطار مالاغا مخترقاً المدن الساحلية حيث المباني ذات الشقق والفنادق والمقاهي والمتاجر. وكان إستيبان مسمراً عينيه على الطريق حيث أن اشتداد الزحام يجعل من أي عدم انتباه مجلباً للهلكة. ولكنها شعرت من تقطيب حاجبيه، بأنه يكره هذه المباني العصرية العشوائية والشوارع غير المنتظمة وذلك بقدر كراهيتها هي لها.

تمتم يقول: «إن السياحة هي المسؤولة عن هذه الفوضى.»

فأومأت برأسها موافقة وهي تقول: «ولكننا لم نعد فقراء كما كنا قبل مجيء السائحين.»

«هذا صحيح، ولكن لماذا علينا أن نصبر على كل هذه البشاعة التي ترافق الأعمال وارتفاع مستوى المعيشة.»

«ربما كان علينا أن نقاوم هذا التطوير منذ وقت طويل. تقول أمي إن الحرب الأهلية دفعت الناس إلى الهجرة إلى خارج البلاد، ناجين بأنفسهم. وكانت الحياة بالغة الصعوبة بالنسبة إلى أسرتها عندما كانت هي صغيرة وكان الحال نفسه بالنسبة إلى كل شخص في أسبانيا، ولهذا حين ابتدأت

السياحة لم ندرك ما كان يعني ذلك، ولم نلحظ المشاكل بسرعة، رأينا فقط الأعمال والأجور المرتفعة والأمل في حياة أفضل.

«كانت على حق، مع الأسف.»

ثم لاذ بالصمت. وأغمضت هي عينيها، كانت نافذة السيارة بجانبها مفتوحة، وسرعان ما أخذت النسائم الباردة تلفح وجهها الساخن، وعندما أخذت تشم روائح أشجار الصنوبر والزيتون، أدركت أنهما قد تحولا الآن إلى داخل البلاد صاعدين التلال. وشيئاً فشيئاً، استولى عليها النعاس.

أخذت السيارة تصعد الطرق الجبلية. إلى جانب منهما كان ثمة منحدرات شاهقة تسبب الدوار، وكان استيبان ينظر من حين لآخر إلى الحاجز الهش بين تلك المنحدرات التي تنتهي إلى واد سحيق أخضر، وكانت هناك أشجار قليلة وهما يصعدان أعلى فأعلى.

لم يستطع أن يسرع في سيره في الظلام، فهو لم يكن يعرف الطريق، فكان يخاف من أن يقع من فوق الحاجز إلى الوادي أسفل واستيقظت ايرينا مجفلة، بعد ساعتين، فاستقامت في جلستها وهي تحملق فيه.

سألها: «هل تشعرين بتحسن؟»

«آه، نعم... أظن ذلك، شكراً. كم بقيت نائمة؟»

«حوالي ساعتين.»

بدا عليها الفزع: «كان عليك أن توقظني.»

«كان يبدو أنك بحاجة إلى النوم، وهكذا تركتك. ليس ثمة حاجة لأن نبقى مستيقظين نحن الاثنين، إذ لا يمكن أن أضيع في هذا الطريق.»

أتراها كانت مستندة عليه طوال مدة نومها؟ وتوهج وجهها حزناً. فاستندت إلى الخلف في مقعدها مبتعدة عنه قدر إمكانها.

بعد ذلك بمدة قصيرة، دخل إستيبان إلى قرية نائمة مغلقة الأبواب دون أنوار في الشارع. كان هناك شارع متعرج واحد.

فتباطأ أمام تقاطع طريق ليرى إرشادات السير، ثم نظر إليها رافعاً حاجبة: «إلى متى علينا أن نسير وفي أي طريق؟»

«أمامنا نصف ساعة أخرى إلى قريتنا. والطريق أسهل هناك منه هنا. إننا الآن سندخل في نفق خلال الجبل، ثم تستدير إلى اليمين وتستمر في سيرك.» ونظرت إلى ساعتها: «أرجو أن يكون رامون وميكيل مازالا مستيقظين.»

«لقد قال نيكولاس إنه سيرسل إليهم خبراً يخبرهم بقدومنا، وإذا قال نيكولاس شيئاً فلا بد أن ينفّذ.» تثاءب إستيبان وهو يقول: «إنني مسرور لقرب وصولنا، فأنا متلهف إلى ساعات من النوم.»

بدا عليها الذعر: «هل أنت متعب؟ لا بد أن تكون كذلك طبعاً.. هل أقود السيارة عنك فترة؟ إنني أحسن القيادة كما إنني أعرف الطريق.»

فقال: «كلا، فأنا أفضل قيادة السيارة بنفسي، فهذه الطرق مخيفة. قد تكون معرفتك بها جيدة ولكنك متعبة، كما أنك متكدرة والليل في منتصفه. والقيادة في طرق غير رملية كهذه تجعل المزاج سيئاً. كم تبعد مزرعتكم عن القرية؟»

«قرابة الربع ساعة. لماذا لا تدعني استلم منك القيادة؟ صدقني انني أحب ذلك.»

قال لها باختصار: «كلا، شكراً.»

فعادت تقول: «ولكن...»

نهرها قائلاً: «قلت لك كلا.»

فأجفلت بشكل واضح، ولم تقل كلمة أخرى.

ساد بعد ذلك بينهما صمت عميق لمدة دقيقة قال بعدها وهو يتأوه بخشونة: «آسف، يا ايرينا، ما كان لي أن أكون بهذه الخشونة معك، وعذري الوحيد هو أنني مرهق للغاية. إنني أعلم أنه ليس عذراً جيداً، ويمكنك أن تخبريني برأيك بي غداً، ولكن لا تجادليني الليلة أكثر من ذلك، ودعيني اوصلك إلى بيتك.»

بعد ذلك لم تنطق بحرف إلى أن وصلا إلى طريق وعر يؤدي إلى بيت قروي صغير هو الذي كانت أمضت فيه معظم حياتها. كان الغبار يثور من تحت عجلات سيارتهما ما جعلها لا تكاد ترى من خلال الزجاج الأمامي فأطلت من النافذة لكي تنظر. كان ضوء القمر يلمع على أوراق أشجار الزيتون العتيقة الملتوية والتي نمت في المياه الآسنة القذرة خلف المنزل، كانت النوافذ مغلقة ولا ضوء يبدو من خلالها. ولكن الكلاب أخذت تنبح، وشهق حمار، بينما استيقظ طائر لقلق على سطح مخزن الغلال، وأخذ يزعق محتجاً على ازعاجه من نومه، فأجابه على ذلك بغل أخذ يرفس بقائمتيه الخلفيتين في مربطه.

قال استيبان بلهجة جافة: «إذا كان رامون وميكيل هنا فسيعلمان بوصولنا.» وكان قد أوقف السيارة بجانب حوض أزهار اللافندر.

ترجلت ايرينا من السيارة متعثرة وقد تشنجت عضلاتها

بعد ساعات من الجلوس في وضع واحد. كانت في منتهى اللهفة للوصول ومعرفة ما جرى لأمها، ولكنها الآن بعد أن وصلت لم تجرؤ على الدخول إلى البيت وقد تملكها الفزع مما قد يخبرها به شقيقاها عن أمها.

لكن إستيبان قال لها برقة: «هيا بنا لنعلم ماذا جرى.» ثم أمسك بذراعها يقودها. رفعت ذقنها بكبرياء وهي تسير معه. عليها ألا تبدو بمظهر الجبانة... بل عليها أن تتسلح بالشجاعة لأجل رامون وميكيل. قد يكونان تركا المدرسة، وقد يكونان عمالاً في مزرعة ولكنهما لم يخرجا عن أنهما ما زالا غلامين، وذعرهما الذي ألجاهما إلى الاتصال بها لتحضر، يعني أنهما بحاجة إليها.

إنفتح الباب قبل أن تصل إليه وخرج منه رامون في بنطلون مكرش وقميص قديم.

نادى وهو يحملق في الظلال التي كانا يقفان فيها: «ايرينا، هل هذا أنت؟»

فردت عليه وأنفاسها تتسارع: «نعم، يا رامون.»

وظهر ميكيل خلف أخيه وقد بدا مثله تشعثاً وتعباً، ويبدو أن الاثنين كانا ينامان بثيابهما.

وقبل أن تصل إليهما سألتهما: «كيف حال أمي؟» أجابها رامون بسرعة يطمئنها: «إنها أحسن الآن، فلا تقلقي...»

تنهدت بارتياح بصوت متهدج إلى أن أضاف يقول: «لقد أجروا لها العملية منذ أربع ساعات.»

«عملية؟» اندفعت ايرينا بهذه الكلمة وهي تفتح عينيها على اتساعهما: «اية عملية؟ ماذا حدث لها، يا رامون وهل حالتها خطيرة؟»

«إنفجار في الزائدة الدودية فاضطروا لإجراء عملية مستعجلة لإزالتها. لقد بقيت فترة في خطر إلى أن وصل الجراح قبل فوات الأوان.» بدا التعب في صوت رامون، وأخذ يتثاءب وهو يمر بأصابعه خلال شعره الأسود الكثيف. «أخبروني أن علينا أن نتصل بك لتحضري، وهكذا اتصلت بالرقم الذي كنت أعطيتنا إياه إلى الصحيفة، فأخبروني أنك في حفلة عرس وأعطوني رقم الفندق. بقيت مدة طويلة إلى أن وجدتك وكذلك كلفني مبلغاً باهظاً، إن أمي ستصرخ عندما ترى قائمة الحساب.»

قالت وهي تحتضنه: «لا تقلق لذلك فسأدفع أنا المبلغ.» وأخذت تمر بيدها على شعره. «يبدو عليك التعب الشديد، يا رامون. لقد حاولت الاتصال بك قبل ركوبي الطائرة، ولكن لم يكن هناك جواب.»

عانقها بدوره وهو يقول: «كنا في المستشفى طوال المساء. لم اشأ أن أغادره قبل أن اطمئن إلى أنها ستصبح بخير.»

نظرت إلى وجهه الشاحب متفحصة: «هل أنت واثق من ذلك؟»

فأومأ قائلاً: «قالوا إن الخطر ارتفع عنها ولم يعد ثمة داعٍ لأن نقلق عليها.»

تنهدت ايرينا بارتياح فسألها بقلق: «هل كنا على صواب في استدعائك، يا ايرينا؟» بدا وكأن وجهه الغلامي قد كبر فجأة، وبدا عليه مزيج من الخوف وشعور الكبار بالمسؤولية.

قالت بحزم: «نعم، كنت على صواب تماماً، وأنا مسرورة لأنك فعلت ذلك.»

فازداد توتر ملامحه: «عندما اتصلت بك لم أكن واثقاً من أنها ستجتاز العملية بسلام، وكنت أعلم أنك ستودين أن تكوني هنا إذا... حسناً... إذا حدث شيء.»

قالت: «إنني فخورة بك.»

كان ميكيل ينتظر أن تعانقه، وعندما استدارت نحوه، قال بابتسامة عريضة: «كنا نريد أن نبقى في المستشفى لو أن الممرضة المتسلطة تلك لم تطردنا لقد أخذت تتحدث إلينا وكأننا أولاد صغار.»

فقالت مازحة: «ما الذي جعلها تظن ذلك؟» فضحك. كان ميكيل لا يعدو السادسة عشرة رغم قوته البادية بالنسبة لعمره حتى انه كاد يسحق عظامها بعناقه لها وهو يحييها.

وتابع يقول: «إنها هي نفسها لم تكن كبيرة السن، وإنما فقط لأنها ترتدي ثياب الممرضات وتضع على رأسها قبعتهن ظنت أن بإمكانها إلقاء الأوامر حولها كما تشاء.» ثم أضاف متباهياً نافخاً عضلاته: «أنا لست طفلاً، فأنا بقوة رامون.»

وما كان ليدهشها أن يكون هذا صحيحاً، فقد كبر جسمه كثيراً منذ آخر مرة رأته فيها، فغدا أطول منها وأعرض جسماً.

كان رامون يحدق بارتياب في إستيبان الذي بقي بعيداً بداعي اللباقة، لكي يفسح لهم المجال لتحية بعضهم بعضاً.

ثم سألها رامون: «من هو هذا؟ سائق تاكسي؟ وهل هو ينتظر أجرته؟»

إحمر وجهها وتلعثمت قليلاً ما جعلها تغضب من نفسها: «كلا، كلا يا رامون. هذا هو السيد إستيبان سيباستيان، صديق من لندن. هذا هو أخي رامون، يا إستيبان، وهذا شقيقي الأصغر ميكيل، هل يمكننا أن نمنحه غرفة يمضي

فيها الليلة؟ إنه متعب جداً، فقد قاد بي السيارة إلى هنا طوال الطريق من مالاغا وأنا شاكرة له جداً شهامته هذه وينبغي له أن ينال بعض الراحة هنا.»

قطب رامون جبينه مرتاباً بهذا الغريب الذي جاء مع أخته في منتصف الليل ونظر إلى عيني إستيبان السوداوين وبقي الإثنان يتبادلان النظرات بصمت كثورين يقيسان قوة بعضهما البعض قبل الاشتباك.

ما لبث إستيبان أن أراح ذهن الفتى بقوله: «إنني أعمل في الصحيفة التي تعمل فيها شقيقتك هذا الصيف، وحيث أنني أسباني وأعرف طرق البلاد، فقد أرسلني رئيسنا لمرافقة شقيقتك إلى هنا. لم يشأ لها أن تسافر وحدها، وخصوصاً أنه كان عليها أن تقود السيارة من مالاغا خلال الجبال اثناء الليل، ولأنها شابة صغيرة لم تعجبه هذه الفكرة.»

فأومأ رامون برأسه بوقار: «الحق معه تماماً، وكان عليّ أن أدرك هذا... ولكنني آسف إذ تملكني... الخوف على أمي.»

قال إستيبان: «هذا مفهوم تماماً حيث أن أمك كانت مريضة جداً. إن أي رجل غيرك كان سيشعر بنفس الشيء.»

نفخ رامون صدره، وقد احمرت وجنتاه زهواً: «حسناً، أشكرك، وكذلك بالنيابة عن أمي.» ومد يده له، فصافحه إستيبان برزانة، ورامون يدعه قائلاً: «تفضل بالدخول.» ثم سار أمامه إلى غرفة الجلوس البيضاء الجدران.

كانت الغرفة مؤثثة بالشكل التقليدي، بقطع من الأثاث كان والده ورثها عن والديه مع المزرعة. خزانة للأواني برفوف سوداء اللون من خشب السنديان على امتداد جدار علق فوقه أوانٍ نحاسية وصينية، ومنضدة أخرى ملمعة، وأريكة

تناسبها أمام المدفأة وقد انتشرت فوقها وسائد ذات لون أحمر داكن، وكذلك ستارتان بنفس اللون علقتا على جانبي النافذة تصلان إلى الأرض. وعلى جدار آخر علقت صور فوتوغرافية مؤطرة قد أخذت منذ بداية القرن، كما يبدو لأسلاف والدهما وقد بهتت ألوانها بمرور السنين.

لم تشأ والدتهم قط أن تغير هذه الغرفة إلى طراز عصري. فقد أحبتها كما هي، رغم أنها أضافت إليها بعض الأشياء مثل الوسائد المخملية والستائر، وأحبت أن تضع زهريات تحتوي على أزهار طبيعية أو صناعية في أنحاء الغرفة تعطر الهواء.

سألها رامون وهو يتثاءب: «هل أكلت؟ هل نحضر لك شيئاً من الطعام؟»

«أنا لست جائعة، واظنني سأذهب الآن لأنام، ماذا عنك أنت يا استيبان؟ هل أنت جائع؟»

«كلا، فقد أكلت في الطائرة فأنا بحاجة إلى النوم اكثر من أي شيء آخر.»

«سأدلك إذن إلى غرفتك.» كانت ايرينا تأخذ الآن مكان والدتها، فالتفتت إلى رامون وقالت: «يؤسفني انكما انت وشقيقك عليكما ان تناما في غرفة واحدة هذه الليلة، ان استيبان سينام في الغرفة الكبرى.» وكانت تعني بذلك غرفة والدتها. فتبادل الغلامان النظرات مجفلين، ولكنهما أومآ طائعين بعد إذ أدركا انه ليس هناك غرفة مناسبة أخرى لاستيبان.

كان الاثنان قد قاما بهذه الرحلة دون امتعة تذكر، اذ لم يحضر استيبان معه سوى حقيبة صغيرة تحوي ما يحتاجه لقضاء الليل، وكذلك هي، وهكذا احضر الحقيبتين من

السيارة، ثم اخذته ايرينا إلى الغرفة الرئيسية الواسعة، وكانت هذه الغرفة أيضاً تقليدية تماماً، فقد كان السرير واسعاً قديم الطراز بأعمدة نحاسية، وبجانب السرير كان هناك مصباح أحمر من الزجاج كان يمنح الغرفة ذلك الدفء الذي طالما أحبته ايرينا.

قالت له وهو ينظر حوله في الغرفة: «إذا احتجت أي شيء، فرامون وميكيل في الغرفة التالية، ان الحمام في الممر، لكنني اخشى أن ترى ذلك محدوداً نوعاً ما بالنسبة إلى مستواك.»

استدار وابتسم لوجهها القلق وهو يقول: «كفى كل هذا القلق لأجل أشياء تافهة، فالمكان يبدو وكأنه بيتي أنا.»

اضطربت وهي ترى ابتسامته هذه، وغمغمت تقول: «آه، يا استيبان...» عند ذلك سمعا صوت شقيقيها في الممر، فابتعد عنها استيبان في الحال.

«تصبحين على خير، يا ايرينا.» كان صوته عميقاً هادئاً، بينما هربت ايرينا إلى غرفتها مغلقة الباب وهي ترتجف.

ذلك ان قلبها اخذ يخفق بعنف حين نظر إليها بذلك الشكل، كما شعرت بدوار.

عندما كانت مسافرة، كان ميكيل ينام في غرفتها، ولكنه عندما علم بأنها قادمة، أخرج كل حاجياته ونظف الغرفة بنفسه وهكذا وجدت ايرينا غرفتها بالغة الترتيب.

سمعت نقراً على باب غرفتها، ثم اطل الغلامان برأسيهما: «اتريدين شيئاً قبل أن ننام؟»

فهزت رأسها نفياً: «كلا، سأنام الآن مباشرة، تصبحان على خير.» وابتسمت لهما بمحبة، فقد كانا غلامين رائعين

كما تقول والدتها دوماً، فقد أخذا مكان والديهما في إدارة المزرعة، كما كانا يرعيان والدتهما بكل محبة واخلاص.

غيرت ايرينا ملابسها ثم أوت إلى سريرها حيث اطفأت المصباح واستلقت في ظلام الغرفة.

بينما كانت تنتظر ان يوافيها الرقاد سمعت صوت سرير استيبان يقرقع عندما استلقى عليه، ثم سمعته يتقلب فيه، ثم يتنهد بعد أن استقر أخيراً في نومه.

ما كان أجمل جلوسها بجانبه في السيارة طوال تلك الساعات، وأغمضت عينيها تحلم به.

استيقظا هما الاثنين، في الصباح التالي متأخرين، استيقظت هي أولاً فوجدت ورقة من ميكيل يقول فيها انهما، هو ورامون كان عليهما ان يذهبا للعمل في المزرعة، خصوصاً وموسم الحصاد قد اقترب.

وجدت ايرينا بعض الخبز البيتي من صنع والدتها، وكذلك فاكهة وبعض الجبن، فجهزت المائدة للإفطار، وما ان أوشكت على الذهاب لإيقاظ استيبان حتى كان قد دخل، وكان شعره مبتلاً ووجهه حليقاً.

سألها وهو يبتسم لها: «هل نمت جيداً؟»

فأومأت إيجاباً: «نعم وأنت؟»

«كلوح من خشب.»

نظر إلى المائدة: «يبدو هذا طعاماً شهياً.» وجلس حينما اخذت هي تسكب له القهوة، ناظرة إليه وهو يختار ما يريد من طعام ويضعه في صحنه، كان يأكل بشيء من التقتير، قطعة صغيرة من هذا الجبن، حبة خوخ، وبعض الخبز المحمص.

سألها وهو يقشر حبة الخوخ فيسيل عصيرها على

اصابعه، ولعق احدى اصابعه تلك دون وعي وهو يسألها: «متى سنذهب لزيارة والدتك؟»

«ساعات الزيارة هي من الثانية إلى الرابعة بعد الظهر.»

«سأتمشى إذن في أنحاء المزرعة مع الغلامين واتحدث اليهما.» قال ذلك وهو يتكىء إلى الخلف قائلاً وعيناه تلمعان: «لقد احببت بيتكم هذا، يا ايرينا، وكذلك شقيقيك، واظنهما يحبانك كثيراً.»

فقالت ببساطة: «وأنا أحبهما أيضاً.» رفعت إبريق القهوة لتعيد ملأ فنجانه، ولكن ما ان مالت نحوه حتى ابتعد عنها بحركة مفاجئة وكأنه لا يريدها ان تقترب منه، وشعرت بهذا وكأنه لطمة على وجهها. فأسرعت بسكب القهوة لكي تبتعد عنه بأسرع مما تستطيع، وإذا بها تريق القهوة على ذراعها.

صرخت ألماً ثم أسرعت تضع الإبريق على المائدة لتهرع نحو المغسلة تجري الماء البارد فوق الحرق.

هتف إستيبان غاضباً: «ما الذي فعلته بنفسك الآن؟»

فاغرورقت عيناها بالدموع وهي تتمتم وقد أمسكت بذراعها تحت المياه الباردة: «لا شيء. دعني وشأني.»

تقدم إستيبان نحوها وأخذ ينظر إلى الإحمرار الذي كان ينتشر على جلدها الرقيق.

«كان عليك أن تكوني اكثر وعياً.» فادارت وجهها جانباً لتمسح دموعها قبل أن يراها، ولكنه رآها بطرف عينه، فقال متأوهاً: «كلا، يا ايرينا. لا تبكي.»

فهمست بصوت متهدج: «أنا آسفة.»

سألها عابساً: «هل تشعرين بألم؟»

نظرت إليه والحب يطل من عينيها: «في كل مرة أراك

فيها أشعر بالألم.» وإذا بوجهه يتقلص ويتملكه الشحوب.

«عليك ألا تقولي شيئاً كهذا.»

احمر وجهها ولكنها لم تبعد نظراتها عنه وهي ترد عليه قائلة: «ولكنه صحيح.»

«إنني أشعر بالزهو إذ أرى إعجابك بي، يا ايرينا.»

«إنه ليس مجرد إعجاب.»

«أنت صغيرة جداً بالنسبة إلي، يا ايرينا، ولأنني لا أحتمل أن أراك تتألمين، فقد ينتهي بي الأمر إلى التسبب لك بالألم إذا نحن لم نضع حداً لهذا الآن. إنسي كلياً أنك عرفتني، وما كان لي أبداً أن أدعوك إلى العشاء تلك الليلة.»

قالت تتحداه من أعماق قلبها، وقد تهدج صوتها: «ولماذا فعلت ذلك؟»

«كانت تلك لحظة جنون تملكتني.» تمتم بذلك، بينما ارتفعت معنوياتها قليلاً.

«إستيبان، إن مجرد موت زوجتك لا يعني أنك لن تكون سعيداً بعدها أبداً.»

«لم أقل هذا قط.» وأخذ منشفة أخذ يجفف بها ذراعها برفق زائد وهو يسألها: «كيف تشعرين الآن؟ أحسن؟ أبقي المنشفة حولها فترة لتحميها من الهواء.»

كان يتحدث إليها بهذا محاولاً تغيير الموضوع، يستبعدها بذلك عنه مرة أخرى. وشعرت هي بهذا: «نعم، شكراً.» قالت ذلك بصوت ينطق بالوحشة ما جعله ينظر إليها ويتأوه مرة أخرى: «ايرينا، إسمعيني... إنني لن أكرر نفس الغلطة مرة أخرى. فأنا لن أتزوج فتاة صغيرة ثم أتركها في البيت وحدها طوال الوقت، ما يجعلها تعسة ضجرة. إذا كنت

حقاً سأتزوج مرة أخرى، فستكون من عمري ولديها مهنة، وربما سنشتغل معاً وبذلك نرى بعضنا البعض على الدوام.»

«وأنا أيضاً سيكون لي مهنة، فجميعنا نفعل هذا هذه الأيام. قد تكون زوجتك جلست في البيت في مدريد فشعرت بالوحدة، ولكنها كانت مختلفة الشخصية عني. فأنا ذهبت لأعيش في باريس وحدي، عندما كنت في الثامنة عشرة، بعد أن كنت أعيش في هذا المكان الذي يبعد أميالاً عن كل مكان آخر... وسرعان ما استطعت الوقوف على قدمي. ثم جئت إلى لندن وحدي، أليس كذلك؟ ثم أخذت اشتغل في سنتنال، واستكشف لندن بالباص، واتخذ أصدقاء. إنني لم اختبىء في البيت خائفة من الخروج.»

كان يحدق إليها متجهماً وقد بدت في عينيه نظرة قاسية، فعضت شفتها، ولكن كان عليها أن تقول له هذه الأشياء، ان تجعله يرى خطأه.

فقالت: «إنني لست زوجتك قد عادت إليك، ولكنني فتاة أخرى. لا يمكنك أن تعيش في الماضي، أو تستمر في تكراره. ثم، على كل حال...» ورفعت رأسها بحركة متمردة، وشعرها الحريري الطويل يتماوج حول كتفيها وهي تستمر في قولها: «من ذا الذي أتى على ذكر الزواج؟ إننا لم نعرف بعضنا البعض بعد، فلماذا لا نبقى مجرد صديقين؟»

نظر اسيتبان إلى وجهها المتوهج، وفي عينيه نظرة حزينة ساخرة: «أنت تعلمين لماذا.»

فخفق قلبها وهي تهمس ببراءة: «أحقاً؟» ولكنها لم تخدعه ببراءتها هذه.

«نعم، أنت تعلمين. فأنا قد ابتدأت أحبك، وقد فات الوقت لنكون مجرد صديقين.»

إنه إذن يحبها كما تحبه، ولكنه لا يريد الاعتراف بذلك تماماً. لقد كان استيبان أسبانيا عنيداً سبق وقرر، منذ سنوات، وبكل مرارة، على ألا يتزوج مرة أخرى... وهو لا يتغير بسهولة. لا بأس، فهو يريد أن يحب ويكون محبوباً. كل شخص كذلك، وهي أيضاً. وهو الرجل الذي تريده...

وفجأة، دفعها بيده يبعدها عنه وعيناه تلتمعان: «يجب أن أذهب لأرى شقيقيك.» ولكنه لم يتحرك وبقي واقفاً ينظر إليها بعينين جياشتين بالعاطفة. فنظرت إليه لحظة طويلة، ثم قالت برقة: «إنك لا تريد رجلاً غيرك أن يكون أول حبيب لي، أليس كذلك؟»

فالتهبت عيناه: «كلا.»

تنهدت بارتياح بينما هو ينظر إليها متفحصاً بعينين ضيقتين، ثم يقول: «أيتها الساحرة الصغيرة، كيف تعرفين كل هذه الأشياء، ولك هاتان العينان الكبيرتان البريئتان وتلك الابتسامة الخجول؟»

«إنني إمرأة، يا إستيبان، وبنات كثيرات كن زميلاتي في المدرسة تزوجن الآن وانجبن أطفالاً، وبعضهن لديهن طفلان أو ثلاثة. إن صديقتي المفضلة بيلار تزوجت في السادسة عشرة. ولكنني لم اتزوج لأن أمي اقنعتني بالذهاب إلى الجامعة، لأنها لم تكمل دراستها ولهذا أرادتني أن اكملها عنها.»

فعبس قائلاً: «أتعنين أنك لا تريدين شخصياً أن تتخذي مهنة؟»

«ليس هذا ما أردت قوله، فأنا أريد مهنة، ولكنني حتى الآن، لم أقرر بعد ما أريد أن أفعل. لكنني لا أريد أن أكون

مجرد ربة منزل وأم. فقد تعلمت الكثير منذ ابتدأت اسفاري. كما أن وجودي في الجامعة يفتح عيني على الكثير، كما تعلم. وكان لي أصدقاء من الشبان.»

عندما رأت الإستياء يبدو على وجهه لما قالته، ابتسمت له: «وقبل أن تسأل، أقول لك، كلا. فأنا لم أسمح لأي شاب بأن ينال مني شيئاً.»

«لم أكن أريد أن أسألك، ولكن ما دمت ذكرت هذا الموضوع، ما الذي منعك من ذلك؟»

«لأنني لم أشأ أن أفرط بشرفي.» وابتسمت له.

ضحك فجأة وهو يقول: «سأذهب لأرى شقيقيك قبل أن تجعليني انحني أمامك عارضاً عليك الزواج.»

لم تدرك ما قاله إلا بعد ذهابه، فأخذ قلبها يخفق. هل يعني استيبان ما اعترف به لتوه؟ كانت هذه مزحة، ولكنها تظهر طريقة تفكيره. وهي قد أحدثت شرخاً في تصميمه العنيد ذاك.

أخذت ايرينا تغني وهي تنظف المائدة وتغسل الأطباق وتنظم المطبخ، ثم دارت في أنحاء البيت وفي يدها منفضة الغبار.

ذهبوا إلى المدينة بعد الغداء. وقد أصرّ الرجال على مساعدة ايرينا في غسل الأطباق قبل أن يغادروا البيت.

كانت قد طهت الطعام، صانعة نوعاً سهلاً هو عبارة عن بطاطا وبندورة وبصل مع بهارات مختلفة، ونوع من السجق يدعى كوريزو اشتهرت به قريتهم، وخبزت ايرينا معه بعض الخبز المكور. وبالنسبة إلى الفاكهة، كان هناك الرمان والبرتقال والخوخ والمشمش وقطع من البطيخ.

أثناء الطعام، أخذ الغلامان يتحدثان مع استيبان، بينما

كانت هي قد اتخذت شخصية أمها بشكل آلي، فلم تكد تتفوه بكلمة، وهي تلاحظ طوال الوقت إن كان الطعام كافياً لكل منهم، أو ماء الشرب متوفراً.

قال ميكيل بابتسامة عريضة: «جميل أن نراك بيننا هنا. كنت خائفاً من أن علي أن أطهي طعامنا، أو أن آكل من طهي رامون، وهو الأسوأ.»

نظرت إليه لاوية شفتيها: «جميل أن يكون هناك من يقدرني رغم أنني فقط آخذ مكان أمي.»

فضحك الغلامان بصوت مرتفع. وقال ميكيل: «هناك دوماً إمرأة موجودة.»

عندما وصلوا إلى المستشفى، بقي استيبان في غرفة الانتظار مع الغلامين بينما دخلت هي لترى أمها وحدها. كانت غرازيا في غرفة صغيرة جانبية، وحالياً كانت المريضة الوحيدة في الغرفة. كانت مستلقية في سرير بالغ النظافة، مغمضة العينين ويداها فوق الغطاء، وكانت جامدة لا تتحرك ما جعل ايرينا تقف جامدة تحدق فيها وقد تملكها الخوف.

ثم همست: «ماما...»

وإذا بالأهداب تتحرك والأجفان ترتفع وإذا بالأم تدير رأسها لتنظر إليها وهي تعبس وكأن الحركة آلمتها.

ركضت ايرينا إلى السرير وهي تهتف: «آه، أنت مستيقظة إذن؟» وانحنت تقبلها بلهفة: «كيف تشعرين الآن، هل تريدين شيئاً فأحضره لك؟ لقد أحضرت لك أزهاراً من الحديقة وبعض الفاكهة.» وكانت تحاول بهذا الحديث أن تخفي خوفها وقلقها عليها.

نظرت غرازيا إلى باقة الزهر التي مدت ايرينا بها يدها

لتراها، ثم فتحت فاها ذاهلة: «إنك قطفت أزهاري البيضاء.»

كانت هذه أزهارها المفضلة، وكانت أوراقها كرقائق الثلج ببياضها ونقائها لاتتلف إلا إذا نزل مطر صيفي أو قضت عليها العفونة ذلك انه لم يكن سهلاً إنبات الورود في ذلك الجو الحار، وتلك التربة التي أحرقتها الشمس. فكانت غرازيا تغرسها في آنية فخارية لتنقلها إلى الداخل في الليالي السيئة وتوفر لها كل قطرة من الماء، وتعتني بها وتوفر لها كل رعاية ممكنة.

وكانت ايرينا تدرك سلفاً أن أمها ستغضب إذا هي قطفت بعضها، ولهذا قالت لها بسرعة: «الأزهار هي التي أرادتني أن احضرها إليك.»

أخذت غرازيا تحدق فيها ذاهلة لما تقوله: «ماذا؟»

«نعم، أرادت أن تراك وتكون معك.»

بدا على غرازيا التردد بين الغضب والضحك وأخيراً اختارت الضحك.

«يا لك من فتاة مخبولة، ما هذا الهراء؟ ألا تعلمين أنني أمضي الساعات أسبوعياً في الاعتناء بأزهاري هذه، لكي تأتي أنت وتقطفي منها نصف دزينة هكذا وبكل بساطة.»

«ذلك لأنك لا تستطيعين رؤيتها من هنا، ثم إنها قد اكتملت تماماً ما سيجعلها بعد يوم أو اثنين، تبدأ في الذبول ومن ثم تتساقط أوراقها بعد أسبوع أو نحوه، كما أن رامون وميكيل يقولان ان ليس بإمكانك إن تعودي إلى البيت قبل أسبوع على الأقل. ولهذا احضرتها إليك لكي تريها قبل أن تذبل وتموت.»

أخذت غرازيا تلامس زهرة منها برقة فائقة وهي تبتسم

قائلة: «إنها رائعة، أليس كذلك؟ الحق معك، وأنا مسرورة لقطفك إياها، فكم سأكره رؤيتها متناثرة الأوراق عندما أعود إلى البيت فالأزهار كالأبناء، كما تعلمين، تغدقين عليها حبك ورعايتك، ولكن كل هذا قد يذهب سدى مهما حاولت حمايتها إذ قد تنسفها الريح أو يخنقها الجليد وهي براعم. أو قد تتلفها ذبابة الزهرة أو التعفن. وأظن أن هذا هو سبب حبنا لها، لأن لهفتنا عليها تزداد كلما توقعنا ما يهددها.»

سحبت ايرينا كرسياً جلست عليه: «أخبريني عن عمليتك.»

قالت غرازيا عابسة: «لا أتذكر شيئاً عنها، ولكن الحركة الآن تسبب لي ألماً بالغاً، وقد أخبروني أن ذلك سيتلاشى وفي خلال أيام قليلة سيكون بإمكاني التجوال في الانحاء، ولكنني الآن أشعر بوخز الخياطة كلما تحركت.»

«ما افظع هذا، ومن حسن الحظ أن رامون وميكيل أحضراك إلى هنا في الوقت المناسب. كما أن الطريق وعر للغاية.»

«إنك تعلمين حالة الطرق عندنا.»

«كانت السيارة تعلو وتهبط بنا طوال طريقنا إلى هنا.»

«هل أحضرك شقيقيك بشاحنتهما العتيقة الفظيعة تلك؟»

«كلا، فقد أحضرنا إستيبان بالسيارة التي كان استأجرها في مالاغا.»

جمدت غرازيا في مكانها وهي تنظر إلى ابنتها: «استيبان.»

فاحمر وجه ايرينا: «آه، لقد نسيت أن... أخبرك...»

قالت غرازيا وهي تبتسم: «نعم، لقد نسيت. يبدو أنه اسباني، ولكن كيف تعرفت إليه، ولماذا جاء معك إلى اسبانيا؟»

فقالت ايرينا وهي تقف: «إنه مدير التسويق في سنتنال.

وهو في الخارج الآن مع الغلامين. هل يمكنني إحضاره ليتعرف إليك؟»

قالت غرازيا باهتمام: «صبراً لحظة. يبدو أنه شخصية هامة مدير التسويق؟ كم يبلغ عمره؟ لا بد أنه أكبر منك بكثير.. ما الذي سيكون بينك وبينه.»

سارت ايرينا نحو الباب لم تكن مستعدة بعد للإفضاء إلى أمها بما تريد أن تعرفه، واقتصرت على القول: «إنه سيعجبك... أنا واثقة من ذلك.» فنادتها غرازيا وهذه تفتح الباب: «عودي إلى هنا يا ايرينا وأجيبي على سؤالي.»

نظرت ايرينا إلى الممر لتشير إلى استيبان وشقيقيها بالدخول، وإذا بها تجمد في مكانها، ثم يفتح فمها تشهق ذاهلة.

هذا بينما كانت غرازيا تقول من سريرها: «عودي إلى هنا، يا فتاة، أريد أن اتحدث معك.» وإذا بها ترى، هي الأخرى، الرجل الذي أذهلت رؤيته ايرينا فلم تستطع أن تتكلم.

كان ذلك الوجه مألوفاً جداً لها، طبعاً، ولكن رؤيته على غير انتظار قد أخرسها عن الكلام.

كان يرتدي ملابس بسيطة كالعادة، بنطلون جينز حائل اللون وقميصاً فضفاضاً طويلاً جعله أشبه بعامل فرنسي، وحذاء خفيفاً. كان يبدو، في هذه الملابس، في أي سن، ابتداء من الاربعين فما فوق. فقد كان أكبر كثيراً مما يبدو، ولكنه كان ما يزال رجلاً بالغ الجاذبية، بحيويته البادية وعينيه الساخرتين اللامعتين وما يبدو من هزل وحنكة، ودفء وتسامح حول عينيه وفمه. «ديسموند، آه يا ديسموند. أين كنت؟ ما أشد سروري بلقائك.»

فقال لها: «ما أجمل أن أراك، يا حبيبتي. يبدو عليك

الشحوب، ولا عجب في ذلك فقد مررت بفترة غير طبيعية منذ ودعتك في محطة شارل ديغول، أليس كذلك؟»

ضحكت قائلة: «ليس لديك فكرة عما عانيناه. ولكن ما الذي تفعله في اسبانيا بينما جميعنا نظنك في فييتنام.»

«كنت فعلاً في فييتنام، وقد عدت منها إلى لندن باكراً هذا الصباح. كنت أقوم بعملي بطريقتي الخاصة، وبقيت أياماً لا أقرأ الصحف أو اسمع الإذاعات، ولهذا لم أعرف الأخبار إلا بعد أن تلقيت برقية من نيكولاس كاسبيان هو واحد من مئة برقية يبدو أنه أرسلها محاولاً البحث عني.»

فقال إستيبان من عتبة الباب: «لا شيء يخفى على نيكولاس، فهو لا يترك حجراً لا يقلبه عندما يريد أن يعرف شيئاً.»

قال ديسموند ضاحكاً: «وها قد وجدني تحت آخر حجر قلبه. فقد وصلت إلي أخيراً إحدى برقياته فتوجهت إلى لندن على الفور.»

سألته ايرينا: «هل رأيت روز؟ إنها تبدو غاية في الضعف، أليس كذلك؟ لقد مرت بمحنة هائلة ما جعلها تفقد كثيراً من وزنها، وأظن ذلك أرهق أعصابها وهذا غير عجيب. إنها لا تنام جيداً رغم الحبوب المنومة.»

«أعلم ذلك، فقد رأيتها هذا الصباح. وهي التي أخبرتني بأنك هنا، وعن عملية أمك، فقررت أن ألحق بك في الطائرة التالية. وقد جئت إلى هنا بالسيارة من مالاغا مباشرة حيث أن نيكولاس أخبرني بأن غرازيا في هذا المستشفى.»

والتفت إلى السرير يبتسم للمرأة الراقدة في السرير: «مرحباً، يا غرازيا، كيف حالك الآن؟ هل تشعرين بتحسن عن أمس؟»

مدت يدها له قائلة بأدب: «مرحباً يا سيد ايميري، نعم، لقد تحسنت كثيراً الآن.»

تملك ايرينا شعور غريب. فهذان اللذان يتصافحان كغريبين هما والداها، كان هذا صعباً تصديقه. فزواجهما القصير ذاك كانت ليتجه أبعد كثيراً مما كانا يظنان، تماما كحجر صغير ألقي في بحيرة فأحدث ذلك دوائر دائمة الاتساع. فلو لم يتعرفا إلى بعضهما البعض لما كانت هي جاءت إلى هذا الوجود... لقد جمعهما زواج قصير انفصلا بعده مدة عشرين عاماً، وها هما الآن هنا يتحدثان بعفوية عن الجو، ويتبادلان المزاح عن طعام المستشفى، ويتحدثان عن فييتنام.

«إن لديك ابنين رائعين... فقد تحدثت معهما هناك عندما كانت ايرينا معك.» قال ديسموند ذلك لغرازيا فتألق وجهها سروراً كحالها دوماً عندما يمدح الناس ولديها...

وقفت ايرينا بعيداً لتفسح لهما المجال في الحديث، ومن زاوية عينها أخذت تراقب أمها واللون الخفيف الذي صعد إلى وجهها الشاحب منذ دخل ديسموند والتألق الذي بدا في عينيها.

أمسك استيبان فجأة بذراع ايرينا وجذبها إلى خارج الغرفة. وكان الممر خالياً فنظرت حولها تسأله: «أين الغلامان؟»

«ذهبا ليتناولا القهوة وسيعودان بعد نصف ساعة ليريا والدتك.»

كان استيبان يتحدث باسماً وقد بدا أصغر سناً خالي البال تقريبا. «إن أسرتك أشبه بصندوق مفرقعات. فأنت لا تعرفين ما قد يقفز منه في اللحظة التالية، فيالها من مفاجأة. هل كنت تتوقعين حضور والدك إلى هنا؟ لقد كنت قلت لي ان ما بينه وبين أمك لم يكن سوى زواج قصير امضياه معاً... ثم... الوداع.»

فهمست تقول وقد تملكها الخوف من أن يكون والداها قد سمعا قوله.

«ولكن الأمر لم يكن كذلك.»

خرجا من الباب المفتوح إلى حديقة صغيرة انتشرت فيها أحواض الزهور، فوقفت تتشمم الأزهار وهي تتحدث عن والديها وعن رأيها الخاص في علاقتهما.

«كانت أمي تحبه، كما أظن، رغم أن هذا مجرد تخمين، ولكن والدي لم يكن سعيداً، فأقدم على هذا الزواج السريع فقط ليهرب من أحزانه. وقد أدركت أمي ذلك في النهاية، وهكذا فضلت الطلاق والابتعاد عنه غير عالمة بأنها كانت حاملاً بي. ولكنها كانت سعيدة مع زوجها والذي رباني، وأنا واثقة من سعادتها تلك. فقد كانا راضيين بحياتهما معاً. ولكن المشاعر لم تكن هي نفسها على الإطلاق. ذلك أنها لم تحبه قط كما أحبت ديسموند، ولكنهما أمضيا حياة جيدة، لكنني لا أظنها، في الواقع، قد نسيت ديسموند، قط... وإلا لماذا أرسلتني إليه بذلك الشكل؟ أظنني كنت بالنسبة إليها حبها الناطق ترسله إليه.»

استمع استيبان إليها باهتمام: «أتظنينه قد أدرك ذلك؟»

فابتسمت له بأسى: «لا يمكنني أبداً التكهن بما يفكر فيه والدي، ولكنني لا أظنه يريد العودة إليها وإكمال حياتهما معاً.»

قال بجفاء: «ولكنه هنا الآن، أليس كذلك؟»

أجفلت، ثم قالت: «نعم، إنه هنا، ولا أدري ما يعني هذا.»

نظر إستيبان إليها وهي تفكر في ذلك، مستوعبة المعاني المحتملة، ثم سألها: «هل لديك مانع في ذلك؟»

فهزت رأسها: «كلا، لا أظن ذلك.» ولكن نظرة حزن بدت في عينيها جعلته يقطب حاجبيه: «هل تخافين من أن

تخسريهما، هما الإثنين، إذا هما عادا إلى بعضهما البعض؟»

كان هذا تخميناً فطناً نكياً، فعضت شفتها وهي تضحك بشيء من الإستياء: «نوعاً ما... ربما إنها أنانية وشعور غير ناضج مني، أليس كذلك؟»

«كلا، بل مجرد شعور بشري. فلا أحد منا يحب التغيير، خصوصاً بالنسبة إلى من يحب. فنحن دوما نتوقع أن يستمر كل شيء كما هو يوماً بعد يوم كما كان دوماً بالضبط. إنها طبيعة البشر.»

نظرت ايرينا إليه بعينين ضاحكتين، وهي تسأله: «هل تتحدث عني أم عن نفسك يا إستيبان؟»

«عنا نحن الإثنين.»

أخذ قلبها يخفق بعنف. بينما كان هو يقول: «أدركت أنك مصدر خطر لي منذ رأيتك لأول مرة في الطائرة القادمة من باريس. لقد أخذت أراقبك من زاوية عيني وأنا أفكر بمبلغ جمالك، ولكنني خفت من التورط معك إذ رأيتك أصغر مني بكثير وكنت على صواب، إذ كان من الجنون ان أفكر في ذلك.»

لكن ايرينا لم تكن تستمع إليه بل كانت تحدق في عينيه السوداوين، تقرأ ما فيهما من مشاعر وهي ترتجف.

ثم قالت: «أحبك، يا إستيبان.»

كانت بهذا القول تعرض مناطق الضعف فيها، معرضة قلبها وكرامتها للأذى، إذا شاء. لقد كانت هذه هي نتيجة الحب على الدوام.

وتأوه هو، قائلاً: «ولكننا لم نعرف بعضنا البعض على الإطلاق، وأنا لا استطيع أن انتهز هذه الفرصة معك. عليّ أن امنحك وقتاً، بل كثيراً من الوقت للتأكد من شعورك.»

تنهدت وهي تجيب: «بل أنا واثقة تماماً.»

«لا تستعجلي الأمور.»

«كلا، يا عزيزي.»

«أنت ما زلت صغيرة، يا ايرينا ولم تتعرفي إلى كثير من الرجال.»

«لا أريد أن أعرف سواك.»

«ولكن...»

«أسكت يا إستيبان.»

لقد أدركت ايرينا أن حياتها، من الآن فصاعداً، ستمد جذورها في إستيبان كما كانت دوماً، حتى الآن، ممتدة في أسبانيا، في ذلك البيت القروي الذي ولدت فيه، في الأسرة التي تتفانى في حبها. ولكن من الآن فصاعداً، كل ذلك سيصبح في المرتبة الثانية، لأن إستيبان سيأتي دوماً في المرتبة الأولى.

تمت